الفصل الأول

فلسطين . . . . إسرائيل

وعد بلفور ، وظروف صدوره – حق تقرير المصير : كيف طبق – انتهاء الحرب العالمية الأولى وإعلان حق الشعوب فى تقرير مصيرها – إنجلترا فى فلسطين – موقف اليهود من الهجرة إلى فلسطين – الوكالة اليهودية ونشاطها – مقاومة العرب فى فلسطين للهجرة اليهودية – الصحافة المصرية – نظرية الاستيعاب – هتلر والنازية ودورهما فى زيادة الهجرة اليهودية إلى فلسطين – موقف السامة العرب من قضية فلسطين – ثورة ١٩٣٦ – موقف مصر الرسمى من القضية – محمد محمود باشا يكتب إلى المستر نيفيل تشمبرلين – مؤتمر المائدة المستديرة فى لندن سنة ١٩٣٩ – الحرب العالمية الثانية : مواقف اليهود والعرب من المتحاربين – سير الحرب حتى سنة ١٩٤٢ – تصريح إيدن حول انتظام الدول العربية فى جامعة خاصة والدوافع إليه – التنافس الفرنسى البريطانى فى المنطقة – محادثات إنشاء الجامعة العربية – وضع فلسطين فى الجامعة العربية – تطور التفكير السياسى لليهود : من نظرية الاستيعاب إلى إقامة الدولة الصهيونية – موقف بريطانيا من هذا التطور – مقتل لورد موين فى القاهرة – مؤتمر بلودان سنة ١٩٤٧ – طلب تقرير عروبة فلسطين من قبل الأمم المتحدة – فلسطين دولة عربية متسامحة – اليهود يصرون على الدولة اليهودية – التقسيم – مناقشة الأمر فى الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة ١٩٤٧ – أمريكا وروسيا تعلنان مواقفهما على التقسيم – تحفظ بريطانيا – دلالته – مفاجأة تخلى بريطانيا عن التزاماتها فى فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ – موقف الباكستان من تقرير لجنة التقسيم – الدعاية الصهيونية خلال نظر مشروع التقسيم – محاولة تأجيل نظر الموضوع إلى الدورة التالية – دعوة أبناء الجاليات العربية من مختلف الولايات لمواجهة النشاط الدعائى الصهيونى – التصويت ومحاولة إسقاط مشروع التقسيم – ما بعد قرار التقسيم : الحرب – قوات المتطوعين أم القوات الرسمية – التغير المفاجئ فى اتجاه الحكومة المصرية والدول العربية – مجلس الشيوخ يعقد جلسة سرية لبحث الأمر – سير العمليات وصيغة البلاغات العسكرية – موقف إنجلترا – وساطة الكونت فولك برنادوت – موقف العرب من عقد الهدنة – انتهاء الهدنة الأولى واستئناف القتال – العمليات تسير فى غير صالح العرب – اليهود يواصلون السعى للصلح مع العرب – اغتيال برنادوت بعد تقديمه تقريره – الجمعية العامة تنظر وصية برنادوت – موقف مصر والدول العربية منها – اليهود يقاومون المقترحات – اغتيال النقراشى باشا – إسرائيل تستمر فى اتصالاتها مع العرب – رالف بانش يستأنف مهمة برنادوت فى قبرص .

كانت الحرب العالمية الأولى لا تزال حامية الوطيس حين أعلنت إنجلترا فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، أنها تكفل لليهود إنشاء وطن قومى فى فلسطين ، وقد عرف هذا الإعلان باسم تصريح بلفور ، نسبة إلى وزير الخارجية البريطانية الذى أعلنه .

وقيل إن السبب فى إعلان هذا التصريح أن إنجلترا أرادت مكافأة اليهود على معاونتهم لها فى الحرب ، وطلبت إلى زعيمهم ، مستر وايزمان أن يذكر لها ما تكافئهم به ، فطلب إنشاء هذا الوطن القومى فى فلسطين ، فكان ما أراد .

ولم يكن هذا التصريح الذى أصدره وزير الخارجية البريطانية نتيجة محادثات قصيرة الأجل ، بل حدثت مفاوضات بشأنه استمرت من أواخر سنة ١٩١٥ ، وكانت الحكومة البريطانية متصلة فى أثنائها بالحكومة الأمريكية فى واشنطن ، ولذلك وافقت وزارة الخارجية الأمريكية على التصريح فور صدوره .

فلما انتهت الحرب العالمية الأولى بانتصار الحلفاء ، إنجلترا وفرنسا وأمريكا وإيطاليا ، قسمت الدول المنتصرة العالم إلى مناطق يختلف بعضها عن بعض فى مبلغ ما لها من حق فى الاستقلال والسيادة . ذلك لأن ما نصت عليه شروط الهدنة التى وضعها الدكتور وودرو ولسون رئيس الولايات المتحدة الأمريكية من حق تقرير المصير أثار فى البلاد الخاضعة للنفوذ الأوربى جميعاً اندفاعاً نحو الحرية وحرصاً على تمتع كل بلد بسيادته واستقلاله . وأدى من ثم إلى حركات تنذر بالعنف تجابه هذه البلاد بها قوى الاستعمار الأوربى .

وكان الاستعمار هو الظاهرة السائدة فى سياسة القرن التاسع عشر . ولم تكن أوربا ترى أن تسلم للأمم التى تستعمرها بحقها فى الاستقلال ، بل كانت تريد أن تقصر هذا الحق على الدول الأوربية وحدها . مع ذلك رأت الدول المنتصرة تجزئة بعض الدول المنهزمة وإنشاء دول أوربية جديدة ، فجعلت من النمسا والمجر دولتين تستقل كل منهما عن الأخرى ، وأنشأت دول بولونيا ولتفيا وأستونيا وأقامت ميناء دانتزيج الحرة ، وخلقت الممر البولونى الذى يصل بولونيا بدانتزيج ، ورسمت خريطة أوربا بالصورة التى تخيلت أنها تكفل السلام فى القارة الصغيرة المتحكمة فى مصائر العالم أجيالا عدة .

فأما ما عدا الدول الأوربية فكان تفكير الساسة المنتصرين يومئذ متجهاً إلى أن يبقى ما كان فيها خاضعاً للنفوذ الأوربى كما كان ، وإلى تقسيم الإمبراطورية العثمانية المنهزمة

تقسيما يوافق اتجاه هؤلاء الساسة ، ويخضع الدول المتخلفة منها لإنجلترا أو فرنسا . وذلك برغم ما قطعته إنجلترا على نفسها إبان الحرب من عهود مكتوبة فى رسائل متبادلة بينها وبين الشريف حسين ، حاكم الحجاز من قبل السلطان العثمانى ، تكفل بها استقلال البلاد العربية ، وما أدت هذه العهود إليه من ثورة البلاد العربية بدولة الخلافة الإسلامية ومعاونتها إنجلترا وحلفاءها معاونة كان لها أثرها فى مصير الحرب .

قسمت الدول المنتصرة العالم إلى مناطق يختلف بعضها عن بعض فى مبلغ ما لها من حق فى تقرير المصير ، وأنشأت ما أسمته الانتداب الذى تخضع بموجبه بعض الدول غير الأوربية إلى بعض الدول الأوربية . وحرصت إنجلترا على أن تكون الدولة المنتدبة فى فلسطين وفى العراق ، وعلى أن تخضع لسلطانها شرق الأردن ليمتد نفوذها من شرق البحر الأبيض المتوسط إلى قلب آسيا ، وأن تخلق لها من النفوذ فى إيران المستقلة ما يصل سلطانها إلى مستعمراتها الآسيوية ، الهند وبرمانيا ، وغيرهما من بلاد الجنوب والجنوب الشرقى فى القارة الآسيوية .

وطوع لها انتدابها فى فلسطين أن تنفذ وعد بلفور بأن تفتح لليهود باب الهجرة إلى الأرض المقدسة . وقد كان زعماء اليهود يطمعون أن تسرع هذه الهجرة إلى « أرض المعاد » لحافز من عقيدة اليهود الدينية بأنهم أصحاب فلسطين منذ ألفى سنة ، وبدافع قوى من الحركات العنيفة المقاومة للسامية ، والتى كانت تجعل اليهود موضع المقت والاضطهاد فى بلاد أوربا كلها . لكن هذا المطمع لم يجد له صدى قويًّا بعد الفترة الأولى من الانتداب البريطانى . فقد رأى اليهود الذين هاجروا إلى « أرض المعاد » أنها لا تنيلهم من أسباب الرخاء ورغد العيش ما تنيلهم إياه البلاد الأوربية التى يعيشون فيها ، كما رأوا من مقاومة أهل فلسطين العرب ، مسلمين ومسيحيين ، لهذه الهجرة ما جعل كثيرين ممن هاجروا يعودون أدراجهم إلى البلاد التى نزحوا منها ، مؤثرين ما يلقونه من عنت مصدره الحركات المقاومة للسامية على هذا الشظف وهذا العنت الذى يلقونه فى أرض « صهيون » . فالحركات المقاومة للسامية لم تكن عنيفة إلى حيث تزعج اليهود الذين ملكوا ناصية المال والصناعة والعلم فى البلاد الأوربية المختلفة ، والذين استطاعوا لذلك أن يكونوا أصحاب الكلمة النافذة فى الكثير من شئون الدول الأوربية الكبرى نفسها .

على أن زعماء الصهيونية ، وفى مقدمتهم مستر وايزمان ، لم ييأسوا ولم يلقوا سلاحهم

حين رأوا هؤلاء المهاجرين يعودون من حيث أتوا ، بل دأبوا على دعوة بنى دينهم إلى الهجرة لما أسموه بلاد أجدادهم الأقدمين . وكانوا يلتمسون فى دعايتهم كل الوسائل التى يرونها تقنع اليهود على اختلاف ميولهم . أليست الكتب المقدسة تذكر أن مصير اليهود إلى « أرض المعاد » ؟ أوليس واجباً على كل يهودى سليم الإيمان أن يعمل على تنفيذ ما جاء فى الكتب المقدسة ؟ هذه نعمة يتأثر بها من اليهود من لا يجدون فى البلاد التى يقيمون بها من أسباب الطمأنينة إلى الحياة ما يطمعون فيه ، فسواء لديهم أن يعيشوا فى أوربا أو فى فلسطين . أما الذين لا يكفى الإيمان لهجرتهم إذا حرموا الرخاء والثراء ، فقد حركتهم الدعاية من الناحية الحساسة فى نفوسهم . فقيل لهم إن فلسطين ليست بلاداً فقيرة كما يتوهمون بل إن بها من الثروة البكر ما إن استغل أفاء على الذين يستغلونه فائدة لا مثيل لها فى البلاد التى يقيمون بها . أليس فى فلسطين البحر الميت وبه من البوتاس وغير البوتاس ما يقدر بألوف الملايين ، بل بملايين الملايين . وليس البحر الميت وحده مصدر الثروة فى « أرض المعاد » بل إن بها من مساقط المياه ومن الأرض الصالحة للزراعة ومن المعادن ما يغل الذهب الخالص . والأمر فى استغلاله إنما يحتاج إلى رأس المال والعلم والمغامرة والمثابرة . ومن كاليهود أصحاب مغامرة ومثابرة وعلم ورأس مال ؟ ! ! فليشدّوا رحالهم إلى البلد الموعود تتحقق نبوءات الأنبياء وآى الكتب المقدسة .

كانت هذه الدعايات تذاع بين اليهود فى مختلف أرجاء العالم وتحملهم على الهجرة إلى فلسطين . لكن ترددهم أول الأمر كان يحول دون السرعة فى تنفيذ السياسة الصهيونية . وقد رأى وايزمان وأعوانه أن هذا التردد طبيعى ، وأن التغلب عليه يقتضى رسم سياسة عملية تشجع المتردد وتدعوه لأرض أجداده السابقين .

لهذا أنشأوا الوكالة اليهودية وجمعوا من يهود أمريكا وأوربا مبالغ ضخمة أقاموا بها مدينة تل أبيب بجوار يافا . وبدأت الوكالة اليهودية تشترى بأثمان باهظة أراضى العرب الذين لم يفطنوا أول الأمر لما لبيعهم أراضيهم من خطر على وطنهم ، بل أغرتهم الأثمان الغالية فحسبوا أنهم يستطيعون أن يستعيضوا بها عما يبيعونه أرضاً أوسع رقعة وثروة أكثر غلة ، وبذلت الوكالة اليهودية فى تل أبيب جهوداً جبارة للتشجيع على الهجرة فكانت تلقى بعض النجاح أحياناً ، وكان يصادفها أحياناً أخرى ما يكاد يفت فى عضدها . فقد كان كثيرون من المهاجرين يشعرون بعد زمن من مقامهم بفلسطين بالحنين إلى الوطن الذى ولدوا به

ونشأوا فيه فيعودون إليه . وكذلك كانت الهجرة الصهيونية بين المد والجزر سنوات متعاقبة .

على أن يهود أوربا ، ويهود أمريكا بنوع خاص ، لم يضنوا بالمال يبذلونه للوكالة اليهودية يعاونونها به على تنفيذ سياستها . ولم تكن حكومة الانتداب البريطانى فى فلسطين تضن هى الأخرى بتأييد الوكالة اليهودية فيما تبذله من جهود لتحقيق أغراض الصهيونية .

أما أهل فلسطين العرب فلم يكونوا يشعرون بادئ الرأى شعوراً قوياً بخطر هذه الهجرة وهم يرونها بين المد والجزر . على أنهم رأوا ضرورة مقاومة وعد بلفور بعد سنوات قليلة من الانتداب ، وبعد أن رأوا حركة بيع الأراضى تمتد امتداداً دس إلى نفوسهم بواعث الإشفاق ، بل بواعث الوجل .

وشعر دعاة اليهود بما قد يترتب على هذه المقاومة العربية فى فلسطين من أثر يتجاوز بلاد كنيسة القيامة والمسجد الأقصى إلى ما وراءها من الأقطار العربية ، فبذلوا جهودهم ليحولوا دون تأييد مصر لجارتها الصغيرة . جاءنا فى جريدة « السياسة » يهودى بدأ يكتب عندنا مقالات فى شئون شتى لا علاقة لها بفلسطين ولا بالهجرة اليهودية ، ثم حدثنى فى تأييد « السياسة » للحركة الصهيونية ، بحجة أن العرب واليهود من الجنس السامى الذى يقاومه الأوربيون بكل قوتهم ، وأن تضافر أبناء هذا الجنس صاحب الفضل الأول فى إقامة الحضارة الإنسانية يقضى على تحكم أوربا الآرية فى أبناء الساميين . وزاد على ذلك أن « السياسة » تفيد من هذا التأييد فائدة مادية جسيمة ، فاعتذرت له عن عدم إجابة مطلبه « فالسياسة » جريدة حزبية طابعها إسلامى ، وتأييدها للحركة الصهيونية لا يتفق مع مبادئنا . وعرض الرجل أن نجعل من « السياسة » منبراً حراً فى هذا الاتجاه ، فاعتذرت مرة أخرى بأن مصر تؤازر البلاد العربية جميعاً فى المطالبة بالاستقلال وتقرير المصير ، وأن « السياسة » على أية حال تفقد الشىء الكثير من نفوذها إذا أيدت حركة ضد العرب ، فى فلسطين كانوا أو فى غير فلسطين . وأحسب أن جهوداً من هذا النوع قد بذلت لدى غير « السياسة » من الصحف ، فلم تلق من الأثر خيراً مما لقيت عندنا .

ولم تكن صحيفة مصرية تستطيع أن تؤيد الحركة الصهيونية بحال . فقد بدأت صيحة فلسطين ضد الهجرة اليهودية ترتفع شيئاً فشيئاً ، وبدأ رجال من ذوى المكانة فى مصر يؤيدون هذه الصيحة تأييداً حاراً . أيدها بعضهم متأثراً بعاطفة دينية ، وأيدها آخرون تأييداً سياسياً أساسه أن وجود وطن يهودى إلى جانب مصر يسىء إلى حياة مصر الاقتصادية

والسياسية على سواء ، هذا إلى أن هجرة قوم إلى بلد برغم أهله يؤدى بطبيعته إلى تضييق أرزاق أصحاب هذا البلد من غير مسوغ ، ويدفعهم إلى الثورة بهؤلاء المهاجرين ثورة بعيدة الأثر محفوفة نتائجها بأشد الأخطار .

تولى السيد أمين الحسينى مفتى القدس الأكبر زعامة الحركة المقاومة للهجرة الصهيونية إلى بلاده . وكان السيد أمين يومئذ شاباً فى مقتبل العمر لما يتجاوز الثلاثين أو الخامسة والثلاثين ، وسيم الطلعة ، عذب الحديث رقيق الحاشية ، وهو إلى ذلك صلب العود ، قوى الشكيمة ، يؤازره فى قوته وفى صلابة عوده مركزه الدينى فى الإفتاء من ناحية ، ومركز أسرته وجلال شأنها فى البلاد المقدسة من الناحية الأخرى . وقد اتجه السيد أمين منذ اللحظة الأولى إلى العالم العربى وإلى العالم الإسلامى كله يطلب مؤازرة هؤلاء وأولئك فى مقاومة هذا العسف الذى نزل ببلاده ، والذى يؤدى ، إذا بلغ غايته ، إلى إخراج العرب من ديارهم ولهم فيها أكثر من ألف وثلثمائة سنة ، منذ فتحها عمر بن الخطاب إلى وقتنا الحاضر .

تزعم السيد أمين الحسينى حركة المقاومة ودعا إلى عقد مؤتمر إسلامى فى القدس يقف فى وجه الهجرة اليهودية . وقد لبى دعوته كثيرون من الأقطار الإسلامية المختلفة ، أذكر من بينهم محمد على علوبة (باشا) وعبد الحميد (بك) سعيد من المصريين ، والسيد عبد الرحمن الصديقى من مسلمى الهند ، وأمثالهم من ذوى المكانة فى العراق وسوريا وإيران وغيرها من البلاد الإسلامية . وقد لقى هذا المؤتمر نجاحاً عظيماً وكان له فى كل جانب من جوانب العالم الإسلامى صدى قوى تداول سمع الناس جميعاً .

كيف تواجه السياسة البريطانية هذه الحركة ؟ إنها حريصة على صداقة العرب والمسلمين ، حريصة كذلك على تنفيذ وعد بلفور بعد أن ارتبطت به وجعلته أساساً من أسس سياستها فى الشرق الأوسط . لابد لها إذن من أن تجد الوسيلة لإرضاء العرب وإرضاء اليهود جميعاً ، وأن تبدو فى مظهر من يريد التوفيق بينهما على أساس عادل . أما واليهود طارئون على البلاد فلا يجوز أن تبلغ هجرتهم حداً يقلق بال العرب على طمأنينتهم للعيش فيها ، ولابد لذلك من تحديد الهجرة اليهودية حتى لا تتجاوز القدر الذى تستطيع البلاد أن تستوعبه من الناحية الاقتصادية . وقبل العرب ، وقبل اليهود ، نظرية الاستيعاب هذه ، وجعل اليهود يقولون إن فلسطين تتسع لاستيعاب عشرات الألوف بل مئات الألوف من المهاجرين ، وجعل العرب يعارضونهم فى ذلك ويقولون إن قدرة فلسطين على الاستيعاب محدودة . بهذا

نصبت إنجلترا نفسها حكماً بين الفريقين ، فأوفدت لجاناً تبحث قدرة البلاد على الاستيعاب ، وجعلت هذه اللجان تضع تقارير تؤيد بها وجهة النظر العربية حيناً ، ووجهة النظر الصهيونية حيناً آخر . بذلك كانت الأعوام تتلاحق وتنقضى ثم لا تقض الهجرة الصهيونية مضجع أحد ، لأنها كانت مترددة بين المد والجزر كما قدمنا .

ولعلها كانت تبقى كذلك عشرات السنين برغم ما كانت الوكالة اليهودية تبذله من جهود جبارة فى إقامة المنشآت وفى شراء الأراضى إغراء لليهود على المجىء إلى فلسطين . لكن الإغراء لم يكن على جسامته كافياً لدفع يهود أوربا إلى النزوح عن أوطانهم التى ولدوا فيها لولا تطور السياسة الأوربية تطوراً دفع اليهود إلى الهجرة مضطرين غير مختارين .

فقد تزعم أدولف هتلر حركة النازية فى ألمانيا ثم حصل على الأغلبية فى انتخابات سنة ١٩٣٢ ، وتولى رياسة الرايخ الألمانى إبر وفاة المارشال هند نبورج . ونشر هتلر كتابه « كفاحى » يعلن فيه الحرب على يهود ألمانيا وعلى يهود العالم كافة . وأصدر من القوانين ما جعل مقام اليهود فى أوربا الوسطى عسيراً بل محفوفاً بالمخاطر . عند ذلك اندفع هؤلاء اليهود إلى فلسطين ، وهنالك تطورت ثورة العرب من أهل البلاد بهذه الهجرة إلى ناحية العنف الرهيب .

كانت البلاد العربية والبلاد الإسلامية تعطف على عرب فلسطين أشد العطف . لكن حكومات هذه البلاد كانت تقف من هذه المشكلة الدولية موقفاً سلبيًّا بحتاً ، وكان ساسة مصر على اختلاف أحزابهم يرون فى هذا الموقف السلبى حكمة غاية الحكمة . فمشكلة العلاقات المصرية البريطانية وتنظيمها كانت تحتاج إلى كل جهد تستطيع مصر بذله ، فإذا وجهت الجهود إلى فلسطين أو غير فلسطين أضعف ذلك نشاطها فى السعى لاستقلالها وسيادتها . كان سعد زغلول (باشا) وغير سعد زغلول (باشا) من ساسة مصر يقولون هذا صراحة ، وإن لم يمنعهم قوله من العطف على فلسطين والأسف للسياسة المتبعة فيها . وكانت الحكومات العربية الأخرى كالعراق وشرق الأردن ، تقف من فلسطين مثل هذا الموقف . ولم يكن لهذه الحكومات ، وكلها خاضعة للنفوذ البريطانى . أن تصنع شيئاً يذكر . لهذا كان مجهود أبناء فلسطين مجهوداً قومياً صادقاً ، وكانت ثورتهم بالهجرة اليهودية وبيع أراضى العرب لليهود عنيفة غاية العنف ، لم يخفف منها ما حدث من انقسام بين زعماء العرب الفلسطينيين ، وما كان من خلاف بين السيد أمين الحسينى ممثل العنصر

المتطرف ، والسيد راغب النشاشيبي ممثل العنصر المعتدل . وقد لا يخطئ من يذكر أن هذا الانقسام أدى إلى مزيد من عنف الثورة العربية فى هذه البلاد المقدسة فى سنة ١٩٣٦ .

وقد كان لهذه الثورة أثر حاسم فى تطور الأحوال ، لا فى فلسطين وحدها بل فى الشرق العربى كله . ولهذا يحاول بعضهم أن يرد أسباب هذه الثورة إلى عوامل يتعذر أن يؤكد الإنسان صحة الاستنتاج فيها . ذلك أن اليهود الذين لم يجدوا فى مصر معيناً لهم على توطيد أقدامهم فى فلسطين فكروا فى الاستعانة بسوريا ولبنان ، وكانتا يومئذ خاضعتين للانتداب الفرنسى ، كما فكروا فى التفاهم مع السيد أمين الحسينى نفسه . ويقول العارفون إن اتفاقاً مكتوباً تم بين الوكالة اليهودية وبين سوريا ولبنان ، أقره السيد أمين الحسينى وإن لم يوقعه ، على أن يستخدم اليهود نفوذهم لدى الحكومة الفرنسية لتعقد كل من سوريا ولبنان معاهدة على غرار المعاهدة التى عقدتها إنجلترا مع مصر ، فى مقابل أن تعترف سوريا ولبنان بالوطن القومى لليهود فى فلسطين . وقد حدث بالفعل أن تفاوضت الحكومة الفرنسية مع سوريا ولبنان ووقعت اتفاقاً عرف باسم الفرنسى الذى وقعه – اتفاق فينو – على أن يعرض على البرلمان الفرنسى لإقراره . وترامت أنباء ما حدث إلى عنصر المتطرفين قبل أن يعرض الاتفاق على البرلمان الفرنسى فقامت ثورة فلسطين فلم يجرؤ من وقعوا اتفاقهم مع اليهود من ساسة سوريا ولبنان أن يعترفوا بالوطن القومى والثورة قائمة . عند ذلك أبلغهم اليهود أنهم فى حل من اتفاقهم . فبذلوا نفوذهم لدى البرلمان الفرنسى ، فرفض اتفاق فينو .

هزت ثورة سنة ١٩٣٦ البلاد المقدسة وهزت غيرها من البلاد العربية فلم تستطع حكومات هذه البلاد أن تحتفظ إلى النهاية بسياستها السلبية إزاء المشكلة الفلسطينية . لذلك دعا غير الرسميين من أبناء مصر المعنيين بهذه الحركة ، وفى مقدمتهم محمد على علوبة باشا ، إلى مؤتمر عربى يعقد بمصر فى أوائل سنة ١٩٣٨ لمناصرة قضية فلسطين . واشترك فى هذا المؤتمر عدد كبير من ذوى المكانة فى البلاد العربية وفى البلاد الإسلامية . وكانت وزارة محمد محمود باشا هى القائمة بالأمر يومئذ فى مصر ، فلم تفكر بطبيعة الحال فى منع هذا المؤتمر أن يعقد بالقاهرة ، ولم تدعه يعقد وينفض بعيداً عنها ، بل رحبت به وزادت على الترحيب أن دعت أعضاءه إلى حفلة ألقى فيها محمد محمود باشا خطاباً رسمياً أيد فيه مطالب العرب وأبدى فيه صادق الرغبة أن توفق الحكومة البريطانية إلى إيجاد حل عادل ينصف أبناء هذه البلاد ويرضيهم .

ولم يقف محمد باشا محمود عند هذا الترحيب وهذا الخطاب الذى وجه السياسة

الرسمية لمصر وجهة جديدة ، بل عنى بالمسألة الفلسطينية عناية جدية ، اقتناعاً منه بأن حلها حلا يرضى مطالب العرب المسلمين والمسيحيين من أهل تلك البلاد يجنب مصر متاعب من الخير تجنبها فى المستقبل . وامتدت عنايته من بعد إلى التفكير فى الوسيلة العملية لتحقيق هذا الغرض ، وفى انتهاز الفرصة لتنفيذ هذه السياسة العملية . فبعد أشهر من انفضاض المؤتمر انتهز فرصة ظنها مواتية فقد ذكر موقف مستر نيفل تشمبرلين رئيس الوزارة البريطانية إذ ذاك من الحرب التى كانت موشكة أن تقع فى صيف تلك السنة ، سنة ١٩٣٨ ، وكيف وفق إلى تجنب وقوعها بالاتفاق الذى عقده مع هلتر فى ميونيخ ، فأراد محمد باشا أن يتخذ من هذا الموقف فرصة تعاون على حل المسألة الفلسطينية ، فخطا خطوة لا يعرفها إلا القليلون . ولم تؤت هذه الخطوة الثمرة التى كان يرجوها ، لكنها مع ذلك جديرة بأن تسجل وأن يحفظها التاريخ .

ولا أحسبنى فى حاجة إلى تذكير القارئ بموقف مستر نيفل تشمبرلين من الحوادث الدولية التى كانت تضطرب بها عواصم أوربا فى صيف تلك السنة . فمنذ تولى أدولف هتلر زعامة الرايخ الألمانى بعد سنة ١٩٣٢ اتجهت سياسته إلى توسيع رقعة الدولة الجرمانية لتشمل جميع البلاد التى يقطنها عنصر جرمانى ، ولهذا ضم النمسا وأراد أن يضم بلاد السوديت من أرض تشيكوسلوفاكيا ، وتحدث الناس عن تفكيره فى ضم الممر البولونى وكان يفصل بروسيا الشرقية عن سائر بلاد الرايخ ، كما تحدثوا عن تفكيره فى التوسع فى أرض بولونيا . وكان يعتمد فى هذا التوسع على نظرية « المجال الحيوى » لألمانيا ، وعلى تفوق الجنس الجرمانى وحقه فى حكم الشعوب . وأدت سياسته هذه إلى اضطراب فى السياسة الأوربية فى صيف ذلك العام اضطراباً تبدت معه نذر الحرب تهدد السلام فى أوربا . وكانت إنجلترا وفرنسا قد كفلتا سلامة بولونيا ، فكان طبيعياً أن تفكر الحكومة البريطانية فيما قد يتنفس عنه هذا الاضطراب ، وفى مبلغ استعدادها للحرب أو حرصها على استدامة عهد السلام حتى تتخذ عدتها لمواجهة الأحداث العالمية إذا لم يكن من وقوع الحرب بد . ورأى مستر نيفل تشمبرلين أنه يستطيع أن ينقذ العالم من خطر الحرب إذا هو التقى بهتلر وتحادث وإياه . وأجابه هتلر إلى ما طلب فالتقى الرجلان فى ميونيخ واتفقا على أن تضم ألمانيا بلاد السوديت وأن تقنع بذلك فلا تتعرض لغير السوديت من البلاد المجاورة لها . وكنا نحن فى مصر نقدرماقديترتب على قيام الحرب من تبعات نحملها نفاذاً لمعاهدة الصداقة والتحالف التى عقدت بين مصر وبريطانيا سنة ١٩٣٦ ، ولهذا تنفسنا كما تنفس العالم كله الصعداء

بعد اتفاق ميونيخ وحسبنا كما حسب كثيرون أن مستر نيفل تشمبرلين قد استطاع بهذا الاتفاق أن يقى العالم كارثة حرب عالمية ثانية أشد هولا من حرب ٩١٤ - ١٩١٨ .

أراد محمد محمود باشا أن يتخذ من هذا الموقف الذى وقفه مستر نيفل تشمبرلين من أزمة الحرب فى سنة ١٩٣٨ فرصة لحل المسألة الفلسطينية حلا عادلاً ، فكتب إلى رئيس الوزارة البريطانية كتاباً نوه فيه بفضله فى التغلب على هذه الأزمة وإنقاذه العالم من الكارثة . وأهاب به أن يبذل لحل مسألة فلسطين جهداً جريئاً كذلك الجهد . وكان محمد باشا عظيم الرجاء فى أن ينتج خطابه هذا من الأثر ما تطمئن له نفسه . لكن مستر نيفل تشمبرلين رد عليه شاكراً له إشادته بجهوده ، ذاكراً أنه كان جهداً مسرحياً (١) لا يجدى مثله فى حل مشكلة فلسطين .

لم يصد هذا الخطاب رئيس الوزارة المصرية عن السعى فى السبيل الذى بدأه . فقد دعت إنجلترا إلى مؤتمر « مائدة مستديرة » يعقد بلندن وتعالج فيه المشكلة الفلسطينية على ضوء التقارير التى وضعتها اللجان البريطانية . وقد جاء فى آخر تقرير منها أن الهجرة الصهيونية بلغت الحد الذى لا تستطيع فلسطين بعده أن تستوعب مهاجرين آخرين . وندبت مصر على ماهر باشا ليمثلها فى المؤتمر المذكور ، آملة أن يصل إلى اتفاق مع إنجلترا على حل لهذه المشكلة المعقدة . وانعقد المؤتمر ثم انفرط عقده من غير أن يصل إلى أية نتيجة إيجابية .

كان ذلك فى أوائل سنة ١٩٣٩ . وبعد أشهر من عودة على ماهر باشا من لندن بدأ الجو الدولى الأوربى يضطرب من جديد . ثم بلغ اضطرابه أن تقوم الحرب العالمية الثانية فى الأيام الأولى من شهر سبتمبر لتلك السنة . عند ذلك سكنت عواصف فلسطين وأبدى العرب واليهود جميعاً استعدادهم لمناصرة الدولة المنتدبة . وكان طبيعياً أن يناصر اليهود إنجلترا فى دفاعها عن استقلال بولونيا ضد الاعتداء الألمانى . فهتلر هو الذى شن على يهود العالم جميعاً غارته الشعواء ، وهو الذى أخرج يهود أوربا الوسطى من ديارهم ودفعهم إلى الهجرة إلى فلسطين ، فلا عجب أن تقف اليهودية العالمية ضده وأن تنصر أعداءه . أما العرب فقد نظروا إلى المسألة من وجه آخر ، فلا يجوز فى عرف المروءة العربية أن يناصب الإنسان العداوة من كان صديقه بالأمس لغير شىء إلا أنه أصبح فى مأزق خطير . هذا إلى أن عرب فلسطين كانوا يقدرون أنهم لا يقدرون على كثير إذا هم ناوءوا الإمبراطورية البريطانية فى هذه الحرب الضروس . مع هذا ذهب السيد أمين الحسينى فانضم إلى الألمان

(١) Spectacular

وأقام ببرلين معظم سنوات الحرب ، كما أنه كان ينظر بعين العطف إلى ثورة الثائر العراقى رشيد عالى الكيلانى ، الذى قام فى بغداد بحركة معادية لإنجلترا عداوة سافرة .

كانت أعلام النصر تسير فى ركاب الجيوش الألمانية فى سنوات الحرب الأولى ، وكان ذلك مشجعاً للذين قاموا بهذه الحركات العدائية ضد الإمبراطورية البريطانية . وظل الأمر على ذلك بعد أن أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا . وإلى أن دخلت الولايات المتحدة الحرب فى صف إنجلترا فى شهر ديسمبر سنة ١٩٤١ . عند ذلك بدأت كفة الميزان بين المتحاربين تعتدل تمهيداً لانتقال أعلام النصر إلى جانب أمريكا وإنجلترا وروسيا . وفى سنة ١٩٤٢ أعلن مستر أنتونى إيدن وزير الخارجية البريطانية فى مجلس العموم البريطانى أنه إذا فكرت البلاد العربية فى تكوين جامعة لها فإن إنجلترا تنظر إلى هذه الجامعة بعين العطف .

لا غناء فى الوقوف عند الجدل الذى ثار يومئذ حول هذا التصريح والأسباب التى أدت إليه ، فهو لا ريب حلقة من سلسلة الحلقات التى جرت عليها السياسة البريطانية توطيداً لمركزها فى الشرق الأوسط . والأمر يبدو كذلك بخاصة إذا نحن ذكرنا موقف إنجلترا من سوريا ولبنان قبل هذا التصريح . فقد كانت فرنسا هى الدولة المنتدبة فى سوريا ولبنان منذ رسمت الدول الأوربية صورة العالم بعد نهاية الحرب العالمية الأولى . وكانت فرنسا ترجو أن تظل سوريا ولبنان موضع ارتكازها فى الشرق الأوسط . فلما كانت الحرب العالمية الثانية وسلمت بعدها فى سنة ١٩٤٠ ، وخرجت بذلك من ميادين القتال مهيضة الجناح نازلة على إرادة الغزاة الألمان الذين احتلوا معظم أراضيها بالهدنة التى عقدوها مع المارشال بيتان ، رأت السياسة البريطانية الفرصة سانحة للاستئثار بالنفوذ فى شرق البحر الأبيض المتوسط . لكنها كانت قد أعلنت من قبل أنها لا تبغى من وراء الحرب أى توسع فى الأراضى الخاضعة لنفوذها ، لهذا رأت أن تشجع الحركات الاستقلالية فى سوريا ولبنان . فلما نضجت هذه الحركات أصدرت تصريحاً بعطفها على مطلب هذين البلدين فى الاستقلال ، عند ذلك اعترفت مصر باستقلال سوريا ولبنان فى سنة ١٩٤١ .

وقد بقى موقف إنجلترا من ثورة القطرين العربية بالسلطان الفرنسى يحز فى نفس فرنسا إلى اليوم ، فلا تكاد تلتقى بصديق من الفرنسيين لا يأبى بحكم هذه الصداقة أن يفتح لك قلبه حتى يذكر هذا الموقف ويراه غدراً من السياسة الإنجليزية بما انعقد بين فرنسا وإنجلترا من صداقة أملتها ولا تزال تمليها منافعهما المشتركة وحرصهما على سلامتهما ضد كل

غزو يهددهما من الشرق الأوربى ، سواء من أوربا الوسطى أو من أوربا الشرقية .

أيدت إنجلترا مطلب سوريا ولبنان فى الاستقلال ، ثم أعلن وزير خارجيتها أن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف إلى جامعة للدول العربية إذا فكرت البلاد العربية من تلقاء نفسها فى إنشاء هذه الجامعة . ولم تلبث الحكومات العربية ، حين أبلغ إليها هذا التصريح ، أن بدأت تفكر بالفعل فى إنشاء هذه الجامعة . وأخذت الحكومة المصرية على عاتقها دعوة سائر الدول العربية للتفاهم على الأسس التى يقوم عليها ميثاق جامعة تربط هذه الدول معاً برباط متين . وتكررت المحادثات لهذا الغرض وانتهت إلى « بروتوكول الإسكندرية » الذى وقعته الدول العربية فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ .

ما عسى أن يكون مركز فلسطين من هذه الجامعة ؟ أتكون عضواً من أعضائها برغم وقوعها تحت الانتداب البريطانى ؟ لم يكن هذا الانتداب ليمنعها من هذه العضوية فقد كانت شرق الأردن تحت الانتداب البريطانى ، وكانت مع ذلك من البلاد التى اشتركت فى مناقشات القاهرة والإسكندرية لتكون عضواً فى الجامعة . ولم يكن الانتداب الفرنسى على سوريا ولبنان قد انتهى دولياً ، وكانتا مع ذلك شريكتين رئيسيتين فى المحادثات لتأليف الجامعة . لكن فلسطين لم تكن بها حكومة قومية من أبنائها ، بل كانت السلطات البريطانية تتولى حكمها مباشرة ، فلم تمثل تمثيلاً رسمياً فى المحادثات . مع هذا لم يفكر أحد من ممثلى الحكومات العربية فى استثناء فلسطين من البلاد العربية التى تضمها الجامعة ، بل اتجه التفكير إلى الوسيلة التى تمثل بها على الرغم من عدم قيام حكومة قومية فيها .

تغيرت الوزارة المصرية التى كانت قائمة بالمحادثات التمهيدية لإنشاء الجامعة العربية وألف أحمد ماهر باشا الوزارة خلفاً لمصطفى النحاس باشا . وتطورت المحادثات بعد بروتوكول « الإسكندرية » إلى مفاوضات لوضع الصيغة النهائية لميثاق جامعة الدول العربية ، وقد واجهت هذه المفاوضات غير مرة صعوبات منشؤها مبالغة كل من الدول العربية فى الحرص على ألا يمس الميثاق سيادتها . وكان ممثل لبنان فى هذا الدور من أدوار البحث ، السيد هنرى فرعون وزير الخارجية أشد المتفاوضين حرصاً على ألا تمس مادة ، وألا يمس لفظ فى مادة حرية بلاده فى التصرف فى شئون استقلالها وسيادتها . أما المملكة العربية السعودية فكانت تجارى مصر كل المجاراة فى أثناء المفاوضات التى جرت ، فى عهد وزارة أحمد ماهر باشا ، وكان موقفها هذا يختلف عن موقفها قبل توقيع « بروتوكول الإسكندرية » . فقد ظلت زمناً شديدة الحرص على حريتها فى التصرف ، وعلى ألا يعوقها ميثاق الجامعة عما تريد

القيام به فى أى أمر تراه ، وكان يبدو لذلك أنها لا ترحب بفكرة الجامعة العربية . وكان ذلك طبيعياً يومئذ لما كان بينها وبين مصر من احتكاك ، وبينها وبين الدولتين الهاشميتين ، العراق وشرق الأردن ، من خلاف أول الأمر . على أن الدول العربية استطاعت بعد محادثات طويلة أن تتغلب على هذه المصاعب كما استطاعت من بعد أن تنتهى إلى وضع الميثاق فى صيغ لا يرتبط بنتائجها فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والتشريع وكل ما يتصل بسيادة الدولة فى الداخل والخارج إلا من رضى هذا الارتباط مختاراً .

أى وضع جعل لفلسطين فى ميثاق الجامعة العربية ؟ ! لم تكن لفلسطين حكومة قومية تستطيع أن توفد من يمثلها فى مجلس الجامعة ، وهى جامعة حكومات لا جامعة شعوب . وفلسطين تعانى محنة لا تعانى غيرها من الدول العربية مثلها . فلم يكن طبيعياً أن تتخلى الدول العربية عنها أو تنساها ، لهذا أضيف إلى ميثاق الجامعة ملحق خاص قيل فيه إن من حق فلسطين الاستقلال والسيادة . وإن حرمانها من حكومة تمثل شعبها وتتحدث باسمه طارئ مصيره إلى الزوال ، وفى انتظار زواله يباح لمجلس الجامعة أن يضم ممثلا أو ممثلين لعرب فلسطين فى كل اجتماع من اجتماعاته .

وقعت الدول العربية ميثاق جامعتها بسراى الزعفران بالقاهرة فى ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ . وكنت أنا أحد الذين وقعوه عن مصر ، وقد تم توقيعه فى جلسه علنية ألقى فيها رؤساء الوفود الممثلة للدول المشتركة فيه خطباً كلها التفاؤل والرجاء .

وعقب ذلك مباشرة عقد مجلس الجامعة جلسته الأولى ، فكانت جلسة تاريخية خطيرة . ذلك لأن فرنسا حاولت استرداد نفوذها فى سوريا ولبنان بحجة أنها صاحبة الحق فى الانتداب عليهما بموجب صك الانتداب الذى أقرته عصبة الأمم . وتمسكت سوريا ولبنان بما لهما من حق فى الاستقلال كسبتاه فى سنة ١٩٤١ واعترفت به مصر وسائر الدول العربية . وكان مفهوماً أن إنجلترا تؤيد حركة سوريا ولبنان . أما فرنسا فقد سلكت مسلك العنف فضربت دمشق بالمدافع وقبضت على كثيرين من رجالات سوريا ولبنان ولجأت إلى البطش الذى حرصت السياسة البريطانية على أن تتحاشاه ما استطاعت . ولعل شعور فرنسا بموقف إنجلترا كان من الأسباب التى دفعتها إلى سياسة العنف . فى الطبع الفرنسى حدة يثيرها برود السياسة الإنجليزية ويدفعها أحياناً إلى تخطى ما تمليه الحكمة وبعد النظر .

ووقفت جامعة الدول العربية إلى جانب سوريا ولبنان وأيدتهما بكل قوتها واعترفت

بحقهما فى السيادة والاستقلال كاملين . وانتقلت الجامعة من مسألة سوريا ولبنان إلى مسألة فلسطين ثم أجلتها إلى دور مقبل يحضره من ينوبون عن فلسطين العربية ويتحدثون باسمها .

ومن يومئذ إلى الوقت الذى أكتب فيه هذه المذكرات – خريف سنة ١٩٥١ – لم تكن دورة من دورات الجامعة إلا عرضت فيها مسألة فلسطين بإفاضة وتفصيل ، وكان ذلك طبيعياً ؛ فالحوادث فى فلسطين وموقفا الدول الكبرى من السياسة الصهيونية كانا يتطوران تطوراً سريعاً يمس كل دولة من الدول العربية عن قرب أشد مساس .

لم يكن بدء هذا التطور راجعاً إلى نهاية الحرب أو إلى اقترابها من نهايتها ، بل كان يرجع إلى موقف العرب وموقف الصهيونيين فى أثناء الحرب ومنذ بدايتها . فقد اشترك اليهود فى الحرب إلى جانب الحلفاء اشتراكاً فعلياً ، وألفوا جمعيات من المحاربين كان لها أكبر الأثر فيما حدث من تطور . كانت فرقة (الهاجاناه) اليهودية من الفرق التى شاركت فى الحرب بنصيب موفور ، وقد تألفت فى ظل الوكالة اليهودية جماعات مسلحة انقلبت من بعد جماعات إرهابية تسمت إحداها باسم (شترن) وتسمت أخرى باسم (أرجون زفاى ليومى) ، وفى ظل هذا التطور انتقلت الفكرة الصهيونية فى تفسير تصريح بلفور نقلة واسعة ؛ فقد كان التصريح يعد اليهود بوطن قومى فى فلسطين . وكانت بعض اللجان البريطانية التى ذهبت إلى فلسطين ورأت أن استيعاب البلاد للمهاجرين قد بلغ مداه فقررت أن إنجلترا قد وفت بوعدها وأنشأت هذا الوطن القومى بالفعل ولم يعد من حق الصهيونيين أن يطالبوها بأكثر مما فعلت . أما الصهيونيون فذهبوا فى العهد الأخير من الحرب إلى القول بأن إنشاء وطن قومى فى فلسطين لليهود كان مرماه الطبيعى إنشاء دولة صهيونية هنالك ، وأن مقومات هذه الدولة تحققت فصار إنشاؤها واجباً ، ولذلك أعدوا عدتهم للمطالبة بتقسيم فلسطين ، قسم للعرب وقسم لليهود ، وأن يكون هذا القسم اليهودى دولة مستقلة ليس لغيرها من الدول أى سلطان عليها .

ماذا عسى أن يكون موقف إنجلترا من هذا التطور فى تفكير اليهود السياسى ؟ أتقرهم عليه ؟ لم يكن ذلك مستطاعاً ؛ فهى كانت ترى شواطئ فلسطين من نقط الارتكاز الأساسية التى تعتمد عليها فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، بل كانت تحسب ، إذا رأت يوماً أن تجلو عن مصر ، أنها تستطيع أن تجعل فلسطين قاعدة قواتها فى هذه المنطقة من العالم ، ولهذا أنشأت ميناء حيفا وأعدتها إعداداً حسناً ، صالحاً لأسطولها الحربى صلاحيته للسفن

التجارية ، لتجد فيها العوض لسد الضرورة عن ميناء الإسكندرية ، بل لهذا فكرت فى مد أنابيب بترول العراق إلى حيفا لتمون سفنها من هذا البترول إذا عز يوماً عليها أن تمونها من بورسعيد أو من السويس ، ولهذا أيضاً أنشأت مطار اللد وأفسحت رقعته وجعلته مطاراً صالحاً لمواجهة أغراض الحرب صلاحيته لأغراض السلم . وقد استعمر اليهود أكثر موانى فلسطين على البحر الأبيض ؛ فتل أبيب مقر نشاطهم تجاور يافا ، وليس بينها وبين حيفا مدى بعيد ، وليس بينها وبين اللد كذلك مدى بعيد . فإذا هم أنشأوا دولة فى هذه الأماكن فأكبر الظن أن تؤول حيفا وأن يؤول مطار اللد إلى هذه الدولة ، وأن تتحطم بذلك تقديرات السياسة البريطانية فى هذا الركن من العالم .

لكن إنجلترا لم تكن لتعترف بشىء من هذا أو تصرح به . وما لها تصارح بسياستها هى ولديها فى تصريح بلفور نفسه الحجة التى تتذرع بها لمقاومة هذه النزعة الصهيونية الجديدة . إنها تعهدت فى تصريح بلفور بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، على شرط ورد فى صلب التصريح بوضوح وجلاء . ذلك ألا يجنى إنشاء هذا الوطن القومى على حقوق العرب أهل البلاد . فالبقعة التى استعمرها مهاجرو اليهود على شواطئ فلسطين تحوى من العرب أكثر مما تحوى من اليهود . فيافا ، التى تجاور تل أبيب ، مدينة إسلامية عربية صرفة . وحيفا ليست يهودية بحال . والبلاد التى استقر فيها المهاجرون اليهود يسكنها من العرب المسيحيين والمسلمين ما يزيد على من هاجر إليها من اليهود . فإذا خضعت هذه المناطق لسلطان اليهود أخل ذلك بوعد إنجلترا للعرب . وهذه الوعود تبعات حملتها إنجلترا وعهود ارتبطت بها وليس من سياسة إنجلترا أن تنقض وعودها أو تتخلى عن تبعاتها ! ! لهذا وقفت أول الأمر تقاوم السياسة الصهيونية الجديدة ، وتظهر للعرب وداً أعظم الود .

كان ذلك هو الحال حين كانت محادثات الدول العربية متصلة لتأليف جامعة لهذه الدول . وكان لورد موين الوزير الإنجليزى للشرق الأوسط ، والمقيم بالقاهرة ، من أنصار هذه السياسة والمؤيدين لها بقوة وحماسة . وكانت إنجلترا تقدر أنها إذا أخذت الأمور بالحزم فوقفت من العرب واليهود موقف الحكم المنصف استطاعت التغلب على النزعة الصهيونية الجديدة ، وكسبت فى نفس الوقت مودة العرب ، لا فى فلسطين وحدها ، بل فى كتلة البلاد العربية جميعها .

حدث ذلك فى الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٤٤ . وكانت الوزارة المصرية القائمة فى الحكم يومئذ وزارة أحمد ماهر باشا . وكنت وزيراً للمعارف وللشئون الاجتماعية فيها .

ولقد دعانا الدكتور ماهر باشا يوماً لتناول طعام الغداء فى « كلوب محمد على » ودعا معنا بعض رجالات العرب ابتغاء التغلب على مشكلة قائمة فى المحادثات الخاصة بإنشاء الجامعة العربية . ولم يكد جمعنا يلتئم حول مائدة الطعام حتى أقبل علينا حسن فهمى رفعت باشا وكيل وزارة الداخلية وأخبرنا أن رجلين مجهولين أطلقا الرصاص على لورد موين ساعة دخوله داره عائداً من السفارة فأرديا قتيلا وفرا على دراجتيهما . وانزعج الدكتور ماهر باشا وانزعجنا جميعاً لسماع الخبر خشية أن يكون القاتلان مصريين أو أن يعجز البوليس عن القبض عليهما فتثور بسبب هذه الجريمة أزمة بين مصر وإنجلترا تعطل ما كنا نفكر فيه من المطالبة بتعديل معاهدة سنة ١٩٣٦ تعديلاً يحقق استقلالها وسائر أهدافها القومية . لكنا لم نلبث إلا قليلا ثم جاءنا النبأ بأن القاتلين قبض عليهما ، تعقبهما رجل البوليس الأمين عبد الله وكان على « موتوسيكل » فلحق بهما وأمسك بتلابيبهما ، وتبين أنهما شابان يهوديان صهيونيان جاءا من فلسطين خصيصاً لارتكاب هذه الجريمة ، بذلك سرى عنا وسكنت مخاوفنا وتناولنا طعامنا وتحدثنا فى أثنائه عن غرض الصهيونية من ارتكاب مثل هذه الجريمة النكراء

ولم يحاول الشابان الإنكار حين حققت النيابة معهما ، بل اعترفا بأنهما من عصابة إرهابية فى فلسطين أبيا – إلى أن حكم عليهما بالإعدام وأعدما – أن يذكرا شيئاً عن تكوينها وأعضائها ، وأنهما ارتكبا جريمتهما لأغراض قومية صهيونية .

كان قتل لورد موين نذيراً من الصهيونيين بأنهم لن يتراجعوا عن القيام بكل عمل يحقق أغراضهم . وقد كشفت الحوادث بعد هذه الجريمة عن صدق عزمهم على المضى فى سياسة العنف إلى نهايتها . فقد حاكم الإنجليز جماعة منهم لارتكابهم جرائم بذاتها فانتقموا من القضاة الإنجليز ومن الضباط الإنجليز وبذلوا غاية الجهد لإنقاذ بنى قومهم ممن حكم عليهم وأودعوا السجن ، وتكررت مظاهر العنف فى صور مختلفة دلت على أن وايزمان وأصحابه لم يعد يكفيهم من وعد بلفور أن يكون لهم فى فلسطين وطن قومى يأوون إليه . بل يريدون أن ينشئوا دولة فى أرض المعاد ، ولقد ذهب دعاتهم فى هذا إلى أنهم يريدون أن يجعلوا من فلسطين كلها دولة لهم ، وقيل أكثر من هذا إنهم قرروا فى مؤتمراتهم السرية أن تمتد دولتهم من الفرات إلى النيل ، وإنهم إن أخفوا هذه السياسة وأنكروها علناً فهى سياستهم التى رسموها وصمموا على تنفيذها .

ما عسى أن يكون موقف الدول العربية من هذه التطورات ؟ لقد كانوا حينذاك فى

شغل بما يتمخض عنه العالم من أحداث نتيجة انهزام ألمانيا وحلفائها الأوربيين فى الحرب ، وكانت الدول العربية متجهة بأنظارها إلى مؤتمر سان فرنسسكو الذى دعت إليه أمريكا وإنجلترا وروسيا السوفييتية لوضع ميثاق الأمم المتحدة . ولما كانت الحرب ما تزال دائرة الرحى فى اليابان ، ولم يكن أحد يتوقع نهايتها السريعة على نحو ما حدث بالفعل بعد أن ضربتها الولايات المتحدة بالقنابل الذرية ، لم يكن اتجاه الدول العربية إلى مسألة فلسطين واضح القوة . بل لعل هذه الدول لم تكن تقدر مدى ما يجول بخاطر الصهيونيين من مطامع ، أو أنها على الأقل لم تكن تقدر أن هذه المطامع ستلقى صدى قوياً فى المجامع الدولية . لهذا كانت تبحث الأمر على هون ، مقتنعة دائماً بأن إنجلترا لن تدع اليهود يصبحون أصحاب الكلمة العليا فى فلسطين اقتناعاً منهم بأن إنجلترا تحرص كل الحرص على أن تكون فلسطين نقطة ارتكازها الأساسية فى الشرق الأوسط كله .

لكن مثابرة اليهود على خطة العنف التى بدأوها ومناوأتهم إنجليز فلسطين مناوأة ظاهرة ، جعلت الدول العربية تفكر فى أمر هذا القطر العربى تفكيراً جدياً . ولهذا دعت جامعة الدول العربية إلى عقد دورة خاصة لبحث المسألة ، وقررت أن يكون انعقاد هذه الدورة فى مصيف بلودان من أعمال سوريا ، وحددت له موعداً شهر يونيو سنة ١٩٤٦ .

كنت على رأس الوفد الذى يمثل مصر فى هذا المؤتمر ، وكان الوفد مؤلفاً من محمود فهمى النقراشى باشا ومكرم عبيد باشا وحافظ رمضان باشا واثنين من موظفى وزارة الخارجية المصرية . ولم يقم النقراشى باشا معنا ببلودان غير يومين اثنين عاد بعدهما إلى القاهرة . ولم أعرف يومئذ سبب عودته ، فهو لم يفض إلىّ بشىء عنها . لكنى علمت من بعد أن صدقى باشا ، رئيس الوزارة ، كان قد بدأ يفاوضه فى أمر الهيئة السعدية التى كان النقراشى باشا يومئذ رئيسها واشتراكها فى الوزارة ، اقتناعاً من صدقى باشا بأن اشتراك هذه الهيئة ييسر سبل المفاوضات التى كان قائماً بها هو وهيئة المفاوضة المصرية مع المفاوضين البريطانيين وعلى رأسهم لورد متانسجيت .

بدأ مؤتمر بلودان أعماله بذكر مطامع الصهيونيين فى فلسطين وما رسمته مؤتمراتهم من سياسة التوسع فى البلاد العربية ، ثم ألف المؤتمر لجنة سرية لبحث الوسائل التى تقاوم بها الدول العربية هذه السياسة . وقد مثل حافظ رمضان باشا مصر فى هذه اللجنة السرية ، ولم أعن كثيراً بما يجرى فيها ، برغم أننى كنت على رأس وفد مصر ، اقتناعاً منى بأن النتائج التى ستصل إليها اللجنة ستعرض على المؤتمر . وكان الشيخ يوسف يس ممثل المملكة العربية

السعودية فى المؤتمر عضواً فى اللجنة السرية كذلك . وقد أثار دهشة المؤتمر كله ذات مساء إذ تلى علينا برقية لاسلكية تلقاها من الملك عبد العزيز آل سعود جاء فيها إن جلالته يرى التزام سياسة الحذر ، وألا تغامر الدول العربية بأمر لا تثق بنتائجه . ترى أكانت اللجنة السياسية تبحث وسائل المقاومة الحربية ليهود فلسطين ؟ ذلك ما يبدو من برقية العاهل النجدى . على أن اللجنة السرية أنهت مأموريتها وتقدم رئيسها فابس بك الخورى بمشروع قرار تقترحه اللجنة ، مؤداه أن تلجأ الدول العربية إلى هيئة الأمم المتحدة تطلب إليها تقرير عروبة فلسطين على أساس من أن هذا المطلب يتفق مع نصوص ميثاق الهيئة وأغراضها فى المحافظة على السلام العالمى .

وافق المؤتمر على هذا القرار . أما ما عداه من أعمال اللجنة السرية فلم يعرض على المؤتمر واعتبر سراً لا يطلع عليه إلا أعضاء اللجنة وأمين الجامعة عبد الرحمن عزام باشا . ولم أفكر فى الوقوف على شىء من هذا السر اقتناعاً منى بأن التفكير فى أمور عسكرية سيلقى مقاومة من إنجلترا ، الدولة المنتدبة فى فلسطين ، وأن الدول العربية خاضع أكثرها إلى النفوذ البريطانى ، فمن غير المعقول أن تفكر فى مقاومة إنجلترا عسكرياً وهى تعلم أنها لا طاقة لها بهذه المقاومة من ناحية ولا فائدة ترجى من ورائها من ناحية أخرى .

وانفرط عقد المؤتمر وعدنا إلى مصر وعاد ممثلو الدول العربية الأخرى إلى دولهم ونحن ننتظر تطور الحوادث ، وكان هذا التطور سريعاً ؛ لأن الصهيونية بدأت تقاوم سلطان إنجلترا فى فلسطين مقاومة جدية بعد أن انتهت الحرب العالمية فى اليابان كما انتهت من قبل ذلك فى أوربا ، وبعد أن تبين أن إنجلترا غير قادرة على أن تحسم ما بين العرب واليهود من خلاف على الهجرة وعلى بيع الأراضى وعلى المشكلة الفلسطينية نفسها .

ورأت الحكومة البريطانية ، بعد إذ تبينت أن كل مجهود للتوفيق بين العرب واليهود غير مجد نفعاً ، أن تلجأ إلى هيئة الأمم المتحدة تستعين بها على حل هذه المسألة المعقدة . فهى لا تريد أن تغضب العرب ولا أن تغضب اليهود ، فإذا صدر قرار من هيئة الأمم المتحدة لا يرضاه أى الفريقين لم تكن سياستها فى الشرق الأوسط معرضة لخصومة من جانب أى الفريقين .

وندبت الأمم المتحدة لجنة خاصة لبحث هذه المشكلة المعقدة واقتراح الوسيلة العادلة لحلها ، وذلك بعد أن عقدت الجمعية العامة دورة خاصة سمعت فيها ممثلى الدول العربية ، والأمين العام لجامعة الدول العربية ، كما سمعت فيها مندوبين عن الصهيونيين . وفى هذه

الجمعية العامة اصطدمت النظريتان العربية والصهيونية اصطداماً ظاهراً . فقد أصر العرب وأصرت جامعة الدول العربية على أن تبقى فلسطين عربية مع التسامح مع من نزح إليها حتى يومئذ من المهاجرين اليهود ليبقوا فيها دون غيرهم من المهاجرين الذين يمكن أن يقدموا بعد ذلك ، وأصر اليهود على تقسيم فلسطين وإقامة دولة صهيونية فيها هى دولة إسرائيل .

ندبت الجمعية العامة لجنة لبحث هذه المشكلة واقتراح الوسيلة العادلة لحلها . وانتقلت اللجنة إلى فلسطين وسمعت أقوال أولى الشأن ثم انتهت إلى اقتراح تقسيم الأرض المقدسة بين العرب واليهود . اقتناعاً منها بأن تعاونهما لا رجاء فيه ، ولأنها وجدت فى نفسها ميلا إلى اليهود لم تجد مثله إلى العرب . ووضعت اللجنة خريطة بهذا التقسيم لا يزال الناظر إليها يراها عجباً غاية العجب . فقد خصت اليهود بالمنطقة الساحلية عدا ميناء يافا ، فقد جعلتها للعرب لأنها رأتها بلداً عربياً إسلامياً صرفاً . ثم إنها جعلت لليهود كذلك جزءاً من شمال فلسطين لا يصله بمنطقة الساحل إلا ممر ضيق غاية الضيق ، ثم جعلت لهم (النقب) أو (النجب) الممتد جنوبى فلسطين ، والذى يفصل بين البلاد العربية فصلاً تاماً . مع هذا تركت للعرب جزءاً من المنطقة الساحلية هو قطاع غزة المتصل بمصر ، ولم تدع بين الجزء الساحلى الذى خصصته لليهود ومنطقة النقب غير ممر أشد ضيقاً من الممر الذى يصل الساحل بالجزء الشمالى . وقدمت اللجنة تقريرها على هذا النحو إلى الأمم المتحدة لتنظره فى جمعيتها العامة التى تعقد فى شهر سبتمبر وما بعده من سنة ١٩٤٧ وطلبت إليها إقرار هذا التقسيم .

أسرع اليهود فى إعلانهم قبول ما قررته اللجنة وطلبوا إقراره . أما العرب فتمسكوا بموقفهم الأول لم يتزحزحوا عنه وطالبوا بعروبة فلسطين وبأن تكون لأهلها الأصليين الذين أقاموا بها منذ فتحها العرب فى القرن الأول الهجرى (الثامن الميلادى) .

كانت مصر قد احتكمت إلى مجلس الأمن فى الخلاف القائم بينها وبين إنجلترا بعد أن قطع النقراشى باشا المفاوضات وقرر مجلس الأمن أن ينظر شكوى مصر فى صيف هذا العام ، عام ١٩٤٧ . وخاطبنى النقراشى باشا لأصحبه إلى مجلس الأمن فاعتذرت ولم أجب رغبته . فطلب إلى أن أذهب على رأس الوفد الذى يمثل مصر فى اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة فاعتذرت كذلك ، ولكنه ألح وقال لى عشية سفره إلى مجلس الأمن إنه أبلغ جلالة الملك اختياره إياى ، وترك لى أن أعتذر لدى جلالته إن شئت . ورأيت أن الاعتذار عن قبول رياسة الوفد قد يسوء تأويله فقبلت وطلبت إلى وزارة الخارجية أن تمدنى بما لديها من وثائق تفيد دراستها فى معالجة المسائل الواردة بجدول أعمال الهيئة وبخاصة

مسألة فلسطين . ولم تسعفنى الوزارة بأية وثيقة إلا ليلة سفرى ، ولم تعطنى تقرير اللجنة التى أشارت بتقسيم فلسطين .

وركبت البحر إلى نيويورك وألفت الجمعية العامة فى الجلسة الأولى لجنة خاصة لبحث مسألة فلسطين ، وذلك بعد أن ألقى مستر ترومان ، رئيس الولايات الأمريكية المتحدة خطاب الافتتاح وأعلن فيه أن الحكومة الأمريكية تنظر إلى مقترحات اللجنة التى أشارت بتقسيم فلسطين بعين التقدير والاعتبار . وقد كان لعبارة الرئيس ترومان هذه وقع ألم فى نفوس الوفود التى تمثل البلاد العربية . فقد قدرت أن اليهود قد بذلوا من الجهد لدى الحكومة الأمريكية ما أدى إلى هذه النتيجة ، وقدروا إلى ذلك أن كثيراً من دول أمريكا الجنوبية ستنضم إلى الولايات المتحدة ، ورأوا دقة الموقف الذى يواجهونه ، فاعترض خطباؤهم فى الجمعية العامة على تصريح الرئيس ترومان ، وذكروا أنه قصد به إلى التأثير فى جو الهيئة ، وخيل إليهم أن السوفييت قد يعاونونهم جرياً على سياستهم فى معارضة أمريكا معارضة مطردة فى كل موقف تتخذه ، وبنوا على هذا الظن آمالاً إلا تكن كبيرة فإنها على الأقل تبعث الرجاء فى ألا يحصل تقرير لجنة التقسيم على ثلثى الأصوات فيتأجل الموضوع سنة يخلق الله خلالها ما يشاء .

بدأ الصهيونيون ينظمون دعايتهم فى صحف أمريكا وفى الجمعية العامة للأمم المتحدة . ولم يكن تنظيم هذه الدعاية عسيراً عليهم . فاليهود فى أمريكا يملكون كل أسباب الدعاية . هم أصحاب الصحف الكبرى ، وأصحاب محطات الإذاعة الأمريكية المختلفة ، وأصحاب دور السينما ، وهم المتحكمون فى سوق المال الأمريكية أكثر من تحكمهم فى سوق المال البريطانية . وهم إلى ذلك ذوو نفوذ ضخم فى الانتخابات لرئاسة الجمهورية الأمريكية . فهم الثلث من سكان ولاية نيويورك . ولهذه الولاية الكبيرة من عدد الأصوات فى انتخابات الرئاسة ما يحسب كل مرشح حسابه . ولهذا قيل إن انحياز الرئيس ترومان إلى اليهود فى تقسيم فلسطين قد كان مرجعه إلى أن انتخابات الرئاسة كانت ستقع فى سنة ١٩٤٨ ، أى بعد عام أو أقل من نظر الجمعية العامة تقرير التقسيم ، وإنه أراد لذلك أن يكفل أصوات اليهود فى نيوربورك بانحيازه إليهم فى مسألة فلسطين .

على أن مستر مارشال ، وزير الخارجية الأمريكية يومئذ ، أراد أن يقنع العرب بأن الحكومة الأمريكية لم تنته بعد إلى رأى فى تقسيم فلسطين ، وأن ما جاء على لسان الرئيس ترومان لا يزيد على أنه تقدير لعمل اللجنة التى بحثت الموضوع شهوراً متصلة ، وأن هذا

التقدير ليس معناه الموافقة على رأى اللجنة .

ولهذا الغرض دعانا إلى مأدبة غداء فى داره بالريف القريب من ليك سكسس . وأظهر أنه يريد مناقشتنا فى الموضوع مناقشة خاصة تعاونه على تكوين رأيه . وقد حضر معنا من الساسة الأمريكان شخص أمريكى كان موضع ثقة مستر مارشال والمتكلم بلسانه . وفى أثناء تناولنا الطعام جعل الوزير يسأل الأمير فيصل آل سعود ونورى السعيد باشا وفارس الخورى بك وغيرهم رأيهم فى الموضوع فيذكرون له حججهم على عروبة فلسطين ، وجلست أنا صامتاً لا أتكلم ، وكان الشخص الأمريكى يناقش زملائنا العرب آراءهم . ثم إن مستر مارشال اتجه إلى الناحية التى كنت بها وسألنى رأيى ، فقلت : أرجو أن تكون حجج زملائى قد أقنعت الوزير . على أننى أضيف إليها حجة لا أحسبها تفوته . فمنذ أعلنت حقوق الإنسان فى فرنسا وفى أمريكا وفى غيرهما من الدول المتحضرة لم يدر بخلد إنسان أن تنشأ فى العالم دولة على أساس دينى ، فيقال دولة المسيحيين أو دولة المسلمين أو دولة اليهود . فإنشاء دولة بفلسطين على النحو الذى أقترحته لجنة التقسيم معناه العود بالإنسانية إلى عهود التعصب الدينى وإلى عهود الحروب الصليبية ، والأمر أفدح خطراً إذا لم تجمع أبناء هذا الدين قومية أوعصبية ولم تربط بينهم ما نعرفه من مقومات الأمم . واليهود الذين هاجروا إلى فلسطين لا تربط بينهم أية صلة غير وحدة الدين ، أما ما خلا ذلك فهم مختلفون فيه كل الاختلاف ، مختلفون فى قوميتهم ، فمنهم اليهود الألمان ، واليهود البولونيون ، واليهود الروس ، وغيرهم وغيرهم ممن لا تعارف بينهم ولا آصرة تجمعهم ، مختلفون فى لغاتهم اختلافهم فى جنسهم ، مختلفون فى كل شىء إلا فى أنهم يهود ، ولا أحسب أمريكا ترضى أن تدفع العالم إلى الوراء فى أسباب الحضارة وتعيد فيه عهود التعصب الذميم الممقوت .

خرجنا من هذا الاجتماع يسأل بعضنا بعضاً ما عسى أن يكون له من أثر . يقول البعض إن وزير الخارجية بدا عليه التردد مما يدل على أن أمريكا لم تتخذ موقفاً حاسماً فى الأمر ، ويقول البعض إنها مجاملة أراد بها وزير الخارجية الأمريكية أن يخفف من أثر ما قاله الرئيس ترومان ، وعدنا إلى ليك سكسس ونحن مدركون دقة الموقف تمام الإدراك .

زاد الموقف دقة بعد أيام إذ أعلنت روسيا السوفيتية موافقتها على تقرير لجنة التقسيم . عند ذلك اجتمعت وفود الدول العربية وتداولت فيما عسى أن تصنع . واتفق رأيها على ضرورة التمسك بعروبة فلسطين ورفض تقرير لجنة التقسيم والعمل على كسب الأنصار من دول أمريكا اللاتينية وغير أمريكا اللاتينية لتأييد فكرتها . وقد رأت منذ اللحظة الأولى أن موافقة

روسيا على تقرير لجنة التقسيم قد يخفف من تأييد أمريكا لهذا التقرير ، وهو قد يدعوها على الأقل إلى تخفيف ضغطها على الدول الأمريكية الأخرى لتسايرها فى الموافقة على التقرير .

ولم تكن هذه الوفود مخطئة فى انتهاج خطة مؤداها إقناع هذه الدول الأمريكية بأن موافقة روسيا على التقرير تنطوى على معانى لا يمكن أن تؤيد السلام فى الشرق الأوسط بحال . فقد درجت روسيا ، منذ ألفت الأمم المتحدة على معارضة السياسة الأمريكية معارضة مضطردة وعلى الوقوف من هذه السياسة الأمريكية موقف الخصومة العنيفة . فموافقتها على تقرير لجنة التقسيم ، بعد أن تبينت موافقة أمريكا عليه ، لا بد ينطوى على أمر تضمره السياسة السوفيتية ، وبخاصة أن اليهود الذين هاجروا من ألمانيا ومن بولونيا ومن تشيكوسلوفاكيا بينهم عناصر شيوعية كثيرة يمكن أن تجعل من الدولة الجديدة التى يراد إنشاؤها نقطة ارتكاز فى الشرق الأوسط تعاون روسيا إذا نشبت حرب عالمية ثالثة .

ولما كان الحديث حول هذه الحرب العالمية الثالثة مستفيضاً فى ذلك الحين ، وكانت الصحف الأمريكية تتحدث عن هذه الحرب على أنها أمر واقع لا محالة ، بل كانت تحرض عليها وتدعو لها وتحاول إقناع الرأى العام الأمريكى بأن المصلحة فى الإسراع إليها قبل أن تقوى روسيا وتستطيع المقاومة ، فقد لقيت حجتنا آذاناً سميعة فى أوساط مختلفة ، بل لقد اقتنع بها ممثلو بعض الدول اللاتينية الأمريكية اقتناعاً ظاهراً لم يخفوه عنا .

وكنا نتوقع أن تجد حجتنا هذه أذناً سميعة من جانب الوفد البريطانى والحكومة البريطانية . وكانت السياسة التى عرفت إلى يومئذ عن الحكومة البريطانية أنها لا توافق على حل للمسألة لا يرضاه العرب واليهود جميعاً . ولما كان موقف العرب واليهود من تقرير لجنة التقسيم ومن كل حل لمسألة فلسطين موقف خصومة صريحة ، فالعرب يريدون عروبة فلسطين ، واليهود يريدون تقسيم فلسطين وإنشاء دولة إسرائيل ، فقد كانت هذه السياسة التى عرفت إلى يومئذ عن إنجلترا سياسة سلبية بحتة ، معناها الظاهر الفرار من تحمل أية مسئولية ، وإلقاء هذه المسئولية على غيرها من الدول الكبرى ، وذلك حتى لا يقف العرب ولا يقف اليهود منها موقف الخصومة . فإذا استطعنا نحن ، ممثلى الدول العربية ، أن نقنعها بأن موقف روسيا وتأييدها تقرير لجنة التقسيم معناه إيجاد نقطة ارتكاز للشيوعية فى الشرق الأوسط ، فقد يعدل بها ذلك عن موقفها السلبى ، وقد يؤدى بها إلى تأييدنا ، ولو كان هذا التأييد غير ظاهر بإقناع الدول التى تدور فى فلكها كى تناصرنا وتؤيدنا فى اللجنة الخاصة وفى الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة .

وثبت فى نفوسنا الاعتقاد بأن حجتنا هذه سيكون لها وزنها عند الجانب البريطانى ما كان بين اليهود والإنجليز فى فلسطين من خصومة سافرة جعلت اليهود يثورون على الحكم البريطانى ثورة صريحة ، وجعلت تشكيلاتهم ، العسكرية ، ومنها الهاجاناه وشترن ، تقاوم الأحكام التى يصدرها القضاة الإنجليز على اليهود فى فلسطين ، وتهاجم السجون وتخرج المسجونين منها وتتعرض بذلك لمقاومة القوات البريطانية المرابطة فى فلسطين ، وكنا نظن أن ما فى هذه الثورة الجامحة من مساس بالكرامة البريطانية سيدفع الوفد البريطانى والحكومة البريطانية ليكون موقفهم أدنى لتأييد العرب ، فإن لم يكن هذا التأييد سافراً ، كان خفيًّا متصلاً بالدول التى يتألف منها (الكومنولث) البريطانى .

لكن السياسة البريطانية سلكت طريقاً اعتبرناه واعتبره غيرنا مفاجأة محيرة . فقد أعلن الوفد البريطانى فى اللجنة الخاصة بموضوع فلسطين أن الحكومة البريطانية قررت إنهاء الانتداب البريطانى على فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، وأنها ستسحب كل قواتها من هناك فى أمد أقصاه هذا التاريخ . ما معنى هذا ؟ وما عسى أن يترتب عليه من النتائج ؟ وكيف يمكن لعرب فلسطين أن يواجهوا الموقف يومئذ وقد جرت السياسة البريطانية فى أثناء الحرب على نزع سلاحهم وإمداد التشكيلات اليهودية بالسلاح ؟

كان هذا الإعلان مفاجأة للوفود العربية لم تتوقعها . وقد أراد الوفد البريطانى معرفة مدى ما لهذه السياسة من أثر فى نفس هذه الوفود ، ، فدعانا مستر هكتور ماكنيل وزير الدولة البريطانى ، ومستر كريتش جونز وزير المستعمرات البريطانى إلى مأدبة غداء بمطعم ليك سكسس . فلما اكتمل اجتماعنا بدأ الأمير فيصل آل سعود الحديث قائلاً : ألا تشعر الحكومة البريطانية بأن عليها تبعة عن تطور الأحوال فى فلسطين ، وأن عليها واجباً نحو العرب لا يتفق وهذا التخلى الذى أعلنته إلى لجنة الأمم المتحدة . وأجاب وزير المستعمرات بأن إنجلترا جرت سياستها على ألا تؤيد حلا لا يقبله العرب واليهود على السواء ، ولما كانت المساعى التى بذلت للتقريب بين وجهتى نظر الفريقين قد فشلت جميعاً لم يكن لها بد من أن تتخلى عن تبعاتها فى البلاد المقدسة وتدع العرب واليهود أنفسهم يواجهون الموقف ويعملون على حله .

وتدخل نورى باشا السعيد فى الحديث قائلاً : إن إنشاء دولة صهيونية فى فلسطين أمر غير مستطاع . ولن تبقى هذه الدولة خمسة عشر يوماً . فأجاب الأمير فيصل : أظنها

تستطيع ولديها من السلاح ما بقى من زمن الحرب ، أن تبقى سنتين . وأجاب وزير المستعمرات البريطانى : لعلها تستطيع أن تبقى خمس سنوات .

واستمر الحديث على هذا النحو من التنبؤ بمقدرة دولة صهيونية تنشأ فى فلسطين على البقاء إلى أن فرغنا من طعام الغداء ، وإلى أن قاربت الساعة الثالثة وحان لنا أن ننصرف ليشترك كل منا فى اللجنة التى يساهم فى عضويتها .

لم تكن الدول العربية وحدها هى المعنية بمسألة فلسطين وبتقرير لجنة التقسيم ، بل شاركتها بعض الدول هذه العناية . وكانت الباكستان فى مقدمة هذه الدول . وكان ظفر الله خان وزير خارجية الباكستان ورئيس وفدها لدى الأمم المتحدة من أشد الناس عناية وأكثرهم درساً وأقواهم فى الدفاع عن عروبة فلسطين ، وقد عنى عناية خاصة بدراسة تقرير لجنة التقسيم وبتفنيد ما ورد فيه من الآراء وما انتهى إليه من النتائج .

والواقع أن التقرير وما أشار به من التقسيم كان بيّن الظلم ، وحسب الإنسان أن يطلع على خريطة التقسيم ليرى هذا الظلم جلياً واضحاً ؛ فقد جعل التقرير معظم الشاطئ الفلسطينى للبحر الأبيض المتوسط من حظ اليهود ، فيما خلا مدينة يافا التى استبقيت للعرب بحجة أن أهلها جميعاً من العرب المسلمين ، ومرفأ حيفا الذى استبقى مرفأ حراً لاستقبال أنابيب البترول من العراق ومن غير العراق ، وفيما خلا الجزء الجنوبى المتاخم لمصر فيما بين غزة والعريش .

ولو أن الأمر اقتصر على هذا لجاز الدفاع عنه على ما فيه من ظلم . لكن التقرير جعل منطقة الجليل الغربى المتاخم للبنان عربياً ، والجليل الشرقى المتاخم لسوريا يهودياً ، وجعل منطقة النقب أو « النجب » لليهود ، ووصل بين هاتين المنطقتين وبين الشاطئ الذى جعله يهودياً وصلا وهمياً رأس مثلث لا يعرف الإنسان معه كيف تتصل المناطق اليهودية بعضها ببعض ، ولا المناطق العربية بعضها ببعض . هذا فضلاً عن أن إعطاء منطقة النقب لليهود على امتداد يصل إلى العقبة معناه فصل البلاد العربية بعضها عن بعض فصلاً تاماً . فهذه المنطقة الفلسطينية هى التى كانت تصل بين مصر وشرق الأردن . فإعطاؤها لإسرائيل ، واتصالها بمنطقة الشاطئ المعطاة لإسرائيل برأس المثلث الذى أشرنا إليه ، معناه فصل مصر فصلاً تاماً عن سائر البلاد العربية . أو يستطيع أحد مع هذا أن يقول إن تقرير لجنة التقسيم لم يكن تقريراً ظالماً ، وأن تنفيذه سيكون مثار خصومات فى الشرق الأوسط لا يمكن أن تهدأ وقد تقلب الشرق الأوسط إلى بلقان ثان تلتهب فيه الشرارة التى توقد نار حرب ثالثة ،

كما أوقدت سيراجيفو نار الحرب العالمية الأولى .

استظهر ظفر الله خان وزير خارجية الباكستان هذا كله أمام لجنة فلسطين وأضاف إليه من الاعتبارات ما جعل كثيرين يشكون أعظم الشك فى عدالة تقرير اللجنة التى اقترحت هذا التقسيم وفى صوابه ، وقد بذلت الوفود العربية مثل هذا الجهد أمام اللجنة ، فتحدث من رجالها كثيرون اتخذ كل منهم من الموضوع موقفاً خاصاً . ورأى اليهود ما تركه مجهود ظفر الله خان وجهود المتكلمين من الوفود العربية فضاعفوا من نشاطهم فى نيويورك وفى الصحافة الأمريكية حتى لم يكونوا يعرفون مللا أو يذوقون للراحة طعماً . بل لقد جاءوا بمستر وايزمان نفسه إلى اللجنة يحدثها ، فإذا هو رجل بلغت منه السنون فحطمت كيانه وأضعفت بيانه . لكنهم أرادوا أن يجعلوا من اسمه تذكرة للإنجليز ولغير الإنجليز ممن يقدرون لهذا الرجل مواقفه فى صفهم فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وأن يؤثروا بذلك فى جمهرة الوفود التى تمثل الأمم المختلفة .

ولم يقف نشاط اليهود فى حدود نيويورك وصحافتها . ذهبت يوماً إلى واشنطون ونزلت فندق (شورهام) فإذا بى أرى جموعاً غفيرة تزحم ردهاته ، فسألت : من هؤلاء ، فقيل لى إنهم اليهود يعقدون بالعاصمة الأمريكية مؤتمراً للدعاية لدولتهم فى فلسطين . وقد استمر هذا المؤتمر ثلاثة أيام جمعت فى أثنائها مبالغ ضخمة لإنفاقها للدعاية للدولة اليهودية وإنشائها فى فلسطين . ولم يكن مؤتمر واشنطن هذا إلا واحداً من اجتماعات متوالية تعقد فى البلاد الكبيرة التى يكثر فيها اليهود . وكانت تنتهى بجمع الأموال للدعاية ولغير الدعاية من الوسائل التى يتذرع بها أولئك اليهود المعنيون بإقامة دولة إسرائيل فى أرض المعاد .

وحفز نشاط اليهود وفود البلاد العربية لمضاعفة نشاطها ، وكان من ذلك أن كلف بعض رجالها من أبناء لبنان السفر إلى أمريكا الجنوبية حيث توجد جاليات لبنانية كبيرة للاتصال بها حتى تؤثر فى حكومات تلك البلاد بما يدفعها لتبعث إلى وفودها كى تؤيد الوفود العربية فى موقفها ، هذا مع ما كنا نعلمه من أثر الولايات المتحدة فى أمريكا الجنوبية كلها . لكن الوفود العربية لم ترد أن تترك وسيلة من الوسائل التى تكفل لها الظفر إلا لجأت إليها وبذلت فى سبيلها كل جهد يستطاع بذله .

كانت المعركة حامية الوطيس إذن ، بالغة غاية الشدة . وكان موقف الدول العربية قوياً لأنه موقف عادل ، ولكن القوة التى كانت تواجهه كانت ذات بأس شديد لأنها جمعت أمريكا وروسيا اللتين كانتا تزدادان صراحة فى تأييد قرار التقسيم كلما تقدم الزمن ،

ثم كانت دول « الكومنولث » البريطانى تظاهر أمريكا مظاهرة لم تخف على الدول العربية ، حتى لقد صارح أحد أعضاء الوفد المصرى مستشاراً فى الوفد البريطانى بأن موقف إنجلترا فى هذا الموضوع ليس موقفاً سليماً ، لأن سكوتها عن التصريح برأيها لم يمنع دول « الكومنولث » الأربعة الكبرى ، أستراليا ، ونيوزيلندا ، وكندا ، وجنوب أفريقيا من أن تبدى تحيزها للصهيونية ، وكان رد الإنجليزى على هذا الاعتراض أنه يدل على أن دول « الكومنولث » مستقلة حقيقة ، وأنها ليست ملزمة بمتابعة رأى إنجلترا ، ولاحظت أنا فى ابتسام : أما كان انقسامها إلى فريقين ، فريق يؤيد اليهود ، وفريق يؤيد العرب أقوى دلالة على استقلالها .

كانت الوفود العربية تجتمع بفندق « ولدورف استوريا » ، بصالون الأمير فيصل أكثر من مرة فى الأسبوع . ولم أكن مواظباً على حضور اجتماعاتها لأننا جعلنا مسألة فلسطين من اختصاص محمود بك فوزى وعبد المنعم بك مصطفى ، فكانا يحضران كل هذه الاجتماعات نيابة عن الوفد المصرى . أما أنا فكنت أحضرها حين أنبه إلى أن الحديث فيها سيتناول أمراً له أهمية خاصة . وكثيراً ما كانت تطول هذه الاجتماعات إلى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل وأحسبنى قد استوفيت حظى من السهر الطويل حين كنت رئيساً لتحرير السياسة ، فأنا لذلك أوثر النوم المبكر منذ سنين .

شعرت الوفود العربية ، على الرغم من الجهود الضخمة التى تبذلها ، بأنها قد لا تصل إلى غايتها ، فلا يؤيدها ثلث أعضاء الجمعية العامة تأييداً يسقط قرار التقسيم ، ولهذا فكرت فى أن تبذل مجهوداً آخر لتأجيل مسألة فلسطين إلى الدورة المقبلة ، لكن الظفر بالتأجيل لم يكن أقل مشقة من إسقاط مشروع التقسيم . فالتأجيل يقتضى توافر أغلبية نسبية من مجموع الحاضرين ، أى نصف عدد الأصوات . فإذا لم نكن واثقين من الثلث كنا فى ريب من أن نحصل على النصف للتأجيل إذ كانت الدول الكبرى حريصة على نظر الموضوع والفصل فيه . وقد تبينت أنا يوماً تعذر التأجيل حين قابلت مستر تريجفى لى ، سكرتير هيئة الأمم المتحدة ، فذكرلى فى صراحة أن الدورة لا تنتهى قبل البت فى موضوع فلسطين بقرار تصدره الجمعية فى أمر التقسيم . هنالك أيقنت أن الأمر فى التأجيل أصعب منه فى نظر الموضوع ، ونقلت ما سمعت إلى زملائى رجال الوفود العربية ، وطلبت إليهم أن يتدبروا الأمر من ناحية الظفر بالثلث لإسقاط التقسيم إذا كان ذلك ممكناً .

وإننى لأتابع أعمال اللجنة السياسية ذات يوم إذ قال لى جارى ، رئيس وفد الأكوادور :

ألا ترون أن تقترح الوفود العربية حلا عملياً غير التقسيم يمكن أن تجتمع عنده الآراء فوقوفكم موقفاً سلبياً فى هذا الموضوع ليس من شأنه أن يجعل مهمتكم يسيرة . وسألته : وهل ترى حلا عملياً يمكن اقتراحه وتجتمع الكلمة عنده . قال : نعم نظـــام le Cantonnement على نحو ما هو حادث فى سويسرا . قلت : سأفكر فى الموضوع . وانتهى حديثى معه عند هذا .

ونقلت ما ذكره لى إلى إخواننا أعضاء الوفود العربية . ورأى بعضهم الاقتراح معقولا . ورآه آخرون خروجاً عن التفويض الذى لديهم من حكوماتهم مع اعترافهم بدقة الموقف عند ذلك اقترح بعضهم على السيد جمال الحسينى ، وكان يمثل فلسطين ، وقد دعته اللجنة الخاصة للتكلم باسم العرب كما تكلم وايزمان وغير وايزمان باسم اليهود – اقترح عليه بعض أعضاء الوفود العربية أن يسافر بالطائرة إلى فلسطين أو إلى بيروت وأن يقابل عمه السيد أمين الحسينى حيث يكون وأن يطالعه بحقيقة الموقف ودقته كما نراه ويعرض عليه فكرة النظام الفيديرالى وأن تقترحها الوفود العربية على أساس أن فلسطين لا تقبل القسمة ، فأبى جمال بك قائلا : إن سفره لعرض مثل هذا الاقتراح يعرضه لأن يتهم بتهمة الخيانة وقد يعرضه للقتل .

والواقع أننا كنا فى حيرة من موقفنا بين التفاؤل والتشاؤم ، وقد بلغت الحيرة بالكثيرين فى بعض الأحيان أن كانوا يخافون أشياء لا محل للخوف منها . كان مستر إيفات وزير خارجية أستراليا هو رئيس اللجنة الخاصة بفلسطين ، وكان رئيساً للجنة فرعية مهمتها التوفيق بين اللجنتين الفرعيتين الأخريين لإيجاد حل تلتقى عنده رغبات العرب واليهود . ولم يبذل الرجل جهداً يذكر ، بل لعله لم يبذل أى جهد فى سبيل هذا التوفيق الذى عهد إليه أن يقوم به . وإننى لفى ليك سكس إذ قابلنى الأمير فيصل وطلب إلىّ أن أحضر اجتماع الوفود العربية ذلك المساء عنده فى تمام الساعة السابعة مساء . قلت : ولكننى مدعو للعشاء الساعة الثامنة والنصف قال : لك علىّ أن نعرض الموضوع الهام الذى يريد إخواننا التحدث فيه لأول ما نجتمع فإذا فرغت منه فلك أن تتصرف كما تشاء . واجتمعنا وسألت عن الموضوع الهام ما هو فعلمت أنه بلغهم أن مستر إيفات سيدعو لجنة فلسطين لتجتمع صبح الغد وأنهم يريدون أن يتداولوا فيما يقولون فى أثناء الاجتماع . ولما كانت اللجنتان الفرعيتان لم تقدم أيهما تقريرها سألت : على أى أساس سيتناقش الحاضرون إذاً ما دام التقريران لم يقدم أيهما . قال قائل ربما أبلغا إلينا منتصف الليل . قلت وهل يعقل أن يبلغ تقرير فى موضوع

خطير كهذا الموضوع منتصف الليل ، ثم يناقش فى الصباح ؟ وإذا حدث أن أبلغ التقريران وطلب أى عضو التأجيل لدرس التقرير ثمان وأربعين ساعة ، أفيستطيع أحد رفض طلبه ؟ قيل : لا . قلت : إذن فلننتظر حتى يصل التقريران ثم نرتب خطتنا بعد ذلك . وتأجل نظر هذا الموضوع (الهام) ولم تعقد اللجنة فى الصباح ولم تعقد حتى قدمت اللجنتان تقريريهما وأتيحت الفرصة لدراستهما . إنما هو الوهم الذى جعل احتمالا كهذا الاحتمال ممكناً ، وهو فى نظر العقل غير ممكن .

وإنما أدخل هذا الوهم فى روع البلاد العربية اقتناعها بأنها على حق ، وشعورها مع ذلك بأن الدول الكبرى تخالف هذا الحق وهى تراه واضحاً تمام الوضوح . وتخالفه وهى تعلم أن فلسطين لا يمكن أن تتسع للعرب واليهود معاً ، وأنها لا يمكن أن تستوعب من المهاجرين اليهود أكثر مما استوعبت . وتخالفه وهى تعلم أن إقامة دولة فى العهد الحاضر على أساس من العقيدة الدينية برغم اختلاف الجنس والمنشأ واللغة أمر غير معقول . تخالفه وهى قادرة إن شاءت أن تجد لليهود المضطهدين فى أوربا ، ولليهود العالم أجمع مكاناً يتسع لهم فى أستراليا ، أو فى أفريقيا الاستوائية ، أو فى أمريكا الشمالية حيث الأراضى الفضاء وموارد الطبيعة البكر تتسع لملايين كثيرة لا تتسع فلسطين لعشر معشارها . تخالفه وهى تعلم أن دعوى اليهود أنهم أصحاب فلسطين منذ ألفى سنة . وأنهم شردوا منها دعوى لا تقوم على أساس ، لأن كثرة يهود فلسطين تنصروا فى عهد الرومان ثم أسلموا فى عصر العرب ولأن كثيرين من يهود العالم يرجعون إلى أصول لا تمت إلى بنى إسرائيل الذين استعمروا إسرائيل قبل المسيحية بنسب . تخالفه وهى تعلم أن قيام دولة يهودية فى الشرق الأوسط لن يعاون على إقرار السلام فى العالم . لكنها تخالفه مع ذلك ومع غير ذلك من الاعتبارات الكثيرة ، لأسباب لا تمت للعدل ولا للسياسة النزيهة بصلة أو بنسب . تخالفه لأن لليهود سلطاناً فى انتخابات رياسة الجمهورية الأمريكية ، وكانت هذه الانتخابات ستقع فى سنة ١٩٤٨ ، أى بعد شهور من انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة ، يوجب على حكومة الولايات المتحدة وعلى رأسها مستر ترومان أن تمالئ اليهود ولو لم يكونوا على حق . تخالفه لأنها تريد أن يكون لها مركز استراتيجى تعتمد عليه فى الشرق الأوسط ، وهى تعلم أن من اليهود الذين هاجروا أو يهاجرون إلى فلسطين عناصر شيوعية كثيرة . تخالفه لأن إنجلترا وعدت بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، وكانت تظن يوم أنشأته أن اليهود لن يقاوموها ، فلما قاوموها وأحرجوها لاذت بالصمت وتركت دول « الكومنولث » ، تصوت فى الجانب الذى تصوت فيه أمريكا وروسيا . والحجة الوحيدة التى كان يتمسك

بها مؤيدو التقسيم أن وجود اليهود فى فلسطين أصبح أمراً واقعاً تقره وثائق دولية من عهد عصبة الأمم فلا سبيل إلى نقض هذه الوثائق . وكأن تقسيم بولونيا لم تقره وثيقة دولية قبل الحرب العالمية الأولى ، ومع ذلك اعتبر هذا التقسيم لبولونيا جريمة دولية منكرة ، وحرصت إنجلترا والدول المنتصرة فى الحرب الأولى على أن تعيد لبولونيا وحدتها لأنها حق وعدل . فلا ضير إذن من أن ترتكب جريمة دولية أخرى بتقسيم فلسطين ، فإذا استطاع بعد ذلك قادر على إعادة وحدة فلسطين بحرب أو بغير حرب فليعدها ، وهو واجد يومئذ من سند المنطق الدولى ما شاء الله من حجج وأسانيد .

هل استنفدت الوفود العربية كل ما تستطيع من وسائل تمكنها من الظفر بثلث الأصوات فى الجمعية العامة حتى يسقط قرار التقسيم ؟ لقد كنا نعلم عن يقين أن شعب الولايات المتحدة لا يؤيد حكومته ولا يعارضها فى هذا الموضوع فيما وراء حدود ولاية نيويورك . ولقد قابلنى صحفى أمريكى فى أبهاء فلاشنج ميدوز ، حيث تعقد الجمعية العامة اجتماعاتها ، وأخبرنى أن الولايات البعيدة بعض الشىء عن نيويورك لا تعنى بمسألة فلسطين فى قليل ولا كثير ، وأنها لا تقرأ صحف نيويورك بل تقرأ صحفها هى ، وأن اليهود فى أمريكا لا يتمتعون من العطف بأكثر مما يتمتعون به فى دول أوربا ، وإنما شوكتهم وسلطانهم فى العاصمة « واشنطون » وفى نيويورك حيث يملكون الصحف الكبرى والمصارف الكبرى ومحطات الإذاعة . أما وفى أمريكا عدد عظيم من أبناء الشعوب العربية ، ومن فلسطين نفسها ، ألا يستطيع هؤلاء أن يقوموا بنشاط يقاومون به الموجة اليهودية ، لعل فى ذلك ما يسكن ولو بعض الشىء من حدة المظاهرة التى يقوم بها اليهود ويحملون بها السلطات الرسمية الأمريكية على مناصرتهم ؟ !

فكر بعضهم فى هذا ، فدعا الأمريكيين الذين ينتمون بأصولهم إلى بلد عربى إلى وليمة كبرى فى فندق بنسلفانيا ، وفيه صالة تتسع لبضعة ألوف يتناولون فيها طعام العشاء . دعوا إلى وليمة عشاء حضرها ألوف وجلس ممثلو الدول العربية فى صدر المكان على منصة الشرف ، وجلس بينهم وكيل الخارجية الأمريكية ، فلما فرغنا من تناول طعام العشاء بدأ الخطباء يتكلمون . وتكلم وكيل الخارجية مدافعاً عن سياسة أمريكا فى صراحة لم نكن نظن أنه يواجه بها هذه الألوف من أبناء العرب . وتداول أبناء الدول العربية الحديث مؤيدين وجهة نظرهم بقوة كل القوة ، وتكلمت أنا باللغة العربية ، فلما فرغنا من تناول الطعام وخرجنا أدهشنى أن هؤلاء العرب الأمريكيين لم يبق منهم من يعرف اللغة العربية ، بل اندمجوا فى الكتلة الأمريكية اندماجاً تاماً ، حتى لقد سمعت أحدهم يقول لأصحابه ما معناه : كم أسفت لأننى

لم أفهم ما قاله المصرى . لقد كان يتكلم بحماسة شديدة تأثرنا بها جميعاً ، ولو أننا فهمناه لشاركناه أغلب الرأى فى اتجاهه .

على أن الخطب الكثيرة الأخرى التى ألقاها ممثلو العرب باللغة الإنجليزية قد أقنعت هؤلاء الأمريكان من أصل عربى بأن الاتجاه إلى تقسيم فلسطين اتجاه ظالم ، وفتحت أعينهم على ما نبه إليه هؤلاء الخطباء العرب من اتجاه السياسة الصهيونية إلى التوسع حتى تمتد دولتهم من الفرات إلى النيل ، لكنهم لم يكونوا يملكون أن يصنعوا شيئاً من مثل ما يصنعه اليهود الأمريكيون . فلم تكن للعرب سياسة كالسياسة الصهيونية تقررت منذ عشرات السنين ، فالعرب يعملون لتنفيذها بصبر ومثابرة كصبر اليهود ومثابرتهم . ولم تؤيد دولة قوية واحدة سياسة العرب كما أيدت الولايات المتحدة وأيدت روسيا سياسة الصهيونيين . لهذا لم يكن لهذه الحفلة الأمريكية العربية من الصدى ما تخطى حدود فندق بنسلفانيا إلا قليلا . ولهذا عدنا نفكر فى كسب الأنصار من أعضاء الأمم المتحدة لعلنا نظفر بالثلث فيسقط قرار التقسيم .

وقد اقتنعنا قبل جلسة الجمعية العامة التى نظر فيها الموضوع بأننا ظفرنا بهذا الثلث ، وبأن الموضوع سيفصل فيه بما نعتقده الحق والعدل . وكم سرنا أن علمنا ليلة انعقاد الجمعية العامة أن الجنرال روموللو رئيس وفد الفيليبين سيخطب فى الجمعية العامة لمصلحة العرب . وكم سرنا أن ممثلى بعض الدول الصغيرة غير الخاضعة للنفوذ الأمريكى المباشر ستصوت فى صفنا . وكم سرنا أن بعض الدول الخاضعة للنفوذ الأمريكى والتى كانت متجهة إلى تأييد التقسيم ستغيب عن جلسة التصويت بعد أن اقتنعت بأن إقرار التقسيم سيؤدى إلى اضطراب فى الشرق الأوسط ليس من شأنه أن يقر السلام العالمى ، وبأن إقرار التقسيم سيعرض اليهود فى العالم العربى والعالم الإسلامى ، وعددهم يزيد كثيراً على المليون إلى ألوان من الاضطهاد لا تنجيهم إقامة الدولة الجديدة منها . وكذلك بقينا ننتظر انعقاد الجمعية العامة ولدينا من الأمل فى سقوط قرار التقسيم ما بعث إلى نفوسنا بعض الطمأنينة .

وتحدد يوم ٢٧ نوفمبر لجلسة الجمعية العامة التى تنظر فيها مسألة فلسطين . وكان الرأى السائد أن تؤخذ الأصوات فى جلسة الصباح ، أو فى جلسة بعد الظهر على الأكثر . وكانت جلسات هذا الدور من أدوار الجمعية العامة للأمم المتحدة قد طالت ثلاثة أشهر . لهذا قرر كثيرون السفر على الباخرة البريطانية (كوين مارى) التى تبرح نيويورك بعد الظهر من يوم ٢٧ نوفمبر وحجزوا أماكنهم عليها . وكذلك فعلت . وحضرت فى صباح ذلك اليوم

جلسة الجمعية العامة واستمعت إلى الجنرال روموﻻو يؤيد سياسة العرب . وسافرت بعد الظهر مع الذين سافروا على « كوين ماري » ومن بينهم رئيس وفد السوفييت ، مستر فيشنسكي ، ورئيس وفد لبنان الأستاذ شارل مالك ، والسير شوكروس النائب العام البريطاني ، وكثيرين غيرهم . وأقمنا ننتظر أن تنقل إلينا إذاعة الباخرة أنباء ماحدث فى فلشنج ميدوز . وعلمت فى الصباح أن الجلسة تأجلت إلى الغد . ماذا حدث ؟ لم يكن أحد منا يتوقع هذا التأجيل . وفى مساء الغد علمنا أنها تأجلت إلى اليوم التالى . ثم صدر القرار فى هذا اليوم الثالث وأذيع أن الجمعية العامة أقرت تقرير لجنة التقسيم . وعلى ذلك أصبح للدولة الصهيونية أن تقوم باسم دولة إسرائيل تنفيذاً لهذا القرار .

كان الأستاذ شارل مالك يتلقى على الباخرة تليفونات خاصة من نيويورك وقد أخبرنا أن محدثيه ذكروا له أنه على إثر إلقاء الجنرال روموﻻو خطابه صبح يوم ٢٧ نوفمبر اتصل البيت الأبيض من واشنطن برياسة جمهورية الفيليبين وذكرها بأن الولايات المتحدة اعترفت باستقلال الفيليبين منذ سنوات قليلة ، وأنها لم تكن تنتظر أن يكون جواب الفيليبين عن هذا الاعتراف باستقلالها أن تعارض سياسة الولايات المتحدة فى مسألة تعيرها هذه الولايات أهمية كبرى ، وأن الرئيس ترومان يعتبر مثل هذا الموقف غير متفق وما يجب بينه وبين الفيليبين من مودة ، وطلب إلى رئيس الجمهورية أن تصدر حكومة الفيليبين إلى وفدها فى الأمم المتحدة التعليمات بأن يصوت مع قرار التقسيم ، وكذلك كان . وقد علمنا كذلك أن غير واحد من ممثلى الأمم الصغيرة التى وعدتنا بالتصويت ضد قرار التقسيم لم يحضر ، وأن الإشاعات تضاربت فى السبب الذى أدى إلى عدم حضوره ، وأن بعض الأقوال يذهب إلى أن البوليس الأمريكى منعه بحجة أو بأخرى من الذهاب إلى مقر الجمعية العامة . مع هذا لم ينل قرار التقسيم ثلثى أصوات الحاضرين ، ولم يبلغ الرافضون للتقسيم ثلث الحاضرين كذلك ، لأن عدداً من الدول امتنعت عن إعطاء أصواتها . ولما كان الذين صوتوا فى مصلحة التقسيم يزيدون على ضعف الذين صوتوا ضده فقد اعتبر هذا تصويتاً فى مصلحة قرار التقسيم كما أقرته لجنة الأمم المتحدة ، وأعلن ذلك فى الجمعية العامة ، وأذيع فى أرجاء العالم جميعاً .

اعتبر ذلك تصويتاً فى مصلحة التقسيم مع أنه لم يجمع أغلبية الثلثين للأصوات التى أعطيت . وقد كان مثل هذا الموضوع محل بحث من قبل غير مرة ، فاختلف الرأى فيه . قيل مرة إن الموضوع لا يجوز اعتباره حائزاً أغلبية الثلثين إلا إذا كان الذين صوتوا معه يمثلون ثلثى الحاضرين أيًّا كانت الأصوات الأخرى ، سواء أكانت رفضاً أم امتناعاً . وقيل فى

التدليل على ذلك إن النص فى ميثاق الأمم المتحدة على أغلبية الثلثين معناه ثلثى الحاضرين جميعاً ، فلو أخذ بغير ذلك وامتنع عدد كبير عن التصويت ثم قبل المشروع عدد يزيد على ضعف الذين رفضوه ، وكان هذا العدد دون نصف الحاضرين ، لكان فى ذلك تخريجاً غير مقبول للنص الوارد فى ميثاق الأمم المتحدة . وقيل مرة أخرى إن الممتنعين يعتبرون فى حكم غير الحاضرين ، وعلى هذا يكفى أن يزيد القابلون على ضعفى الرافضين ليكون المشروع مقبولا . وقيل فى التدليل على ذلك إن الأخذ بهذا الرأى هو وحده الذى يسير بأعمال الأمم المتحدة سيراً إيجابيا . فأما إذا لم يؤخذ به فأغلب الظن ألا يحصل مشروع قرار على الأغلبية وتعد القرارات كلها مرفوضة . وفى هذا تعطيل لعمل الجمعية العمومية غير مستساغ .

لا أريد أن أؤيد أى الرأيين . ولكننى أشعر بأن الذين يمتنعون عن التصويت لا يمكن تفسير امتناعهم بأنه قبول أو رفض لما هو معروض عليهم ؛ فأقل ما يجب فى هذه الحال أن يؤجل الموضوع المطروح للرأى إلى دورة مقبلة عادية أو غير عادية حتى تتكون للقبول الأغلبية التى يتطلبها الميثاق من مجموع أصوات الحاضرين عند أخذ الرأى .

عادت وفود الدول العربية إلى بلادها وقد أيقنت أن الحق والعدل ألفاظ لا مدلول لها فى قاموس السياسة ، وأن الدول صاحبة القوى المادية عسكريًّا واقتصاديًّا هى صاحبة الكلمة النافذة ، وأن التفكير لذلك فى عالم أفضل ؛ أو فى سلام عالمى دائم لا يعدو أن يكون ضرباً من أمانى الخيال ؛ وأن العالم الإنسانى الذى تقدم فى العلم وسلطانه على الطبيعة لا يزال هو هو ، توجهه سلائقه الحيوانية التى توجه السباع وسائر المفترسات غير الناطقة ، وأن عليهم لذلك أن يفكروا كيف يقاومون قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بالوسائل التى لجأت إليها الأمم الكبرى فى الضغط على الأمم الصغيرة لاستصدار هذا القرار .

بذلك انتقل التفكير من ممثلى الدول العربية لدى الأمم المتحدة إلى الهيئات التنفيذية فى هذه الدول وإلى جامعة الدول العربية ، ولهذا لم يبق لى وأنا رئيس مجلس الشيوخ أن أتعرض لشىء من الأمر إلا أن يقتضى تصرف الحكومة فى شأنه أن تلجأ إلى البرلمان . ومن ثم لم تكن لدى معلومات مباشرة أدونها فى هذه المذكرات ، وإنما أكتفى بما وقفت عليه فى الصحف أو من الأحاديث الخاصة التى جرت بعد ذلك بينى وبين من كانوا يتولون هذه الأمور. وكان الأمر كذلك بخاصة لأن مجلس الدول العربية أحال كل ما يتصل بفلسطين وعروبتها إلى اللجنة السياسية فيها . واللجنة السياسية تتألف من وزراء الخارجية أو من رؤساء الوزراء . وعلى ذلك بقى سائر أعضاء مجلس الجامعة – وأنا منهم – بمعزل عما يجرى فى

هذه اللجنة السياسية ، لا يشتركون فى تفكير ولا فى مناقشة ولا فى قرار ، ولا يعرفون من أمر ما يحدث إلا ما يصلهم عن طريق الأحاديث الخاصة أو ما تنشره الصحف من أنباء اللجنة وقراراتها .

كانت الحكومات العربية ترى أن القوة وحدها هى السبيل لا سبيل غيرها لمنع قيام دولة صهيونية فى فلسطين ، ولكن أتراها تتدخل بقواتها المسلحة حتى لا ينفذ قرار الأمم المتحدة؟ كان اتجاهها بادئ الرأى إلى أن ذلك لا مصلحة فيه ، ومن شأنه أن يدفع هذه الأمم المتحدة لترى فى تصرفها خروجاً على قرار الهيئة لا يتفق وعضويتها فيها . ولهذا اتجه التفكير فى اجتماع للجنة السياسية عقد ببيروت إلى تأليف قوات عرفية من أهل فلسطين ومن المتطوعين من أهل الدول العربية المختلفة . وأن تمدهم هذه الدول بالسلاح وتسمح لضباط من جيوشها أن يستقيلوا من هذه الجيوش وأن يتولوا قيادة هؤلاء المتطوعين . وقد بدأ تنفيذ هذه السياسة بالفعل من قبل يوم ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، وهو اليوم الذى حددته إنجلترا لانسحاب آخر فوج من جنودها من الأراضى المقدسة التى كانت تحت انتدابها .

وكان النقراشى باشا رئيس الوزارة المصرية من أشد ممثلى الدول العربية حماسة لعدم اشتراك القوات الرسمية لهذه الدول فى القتال . ولم تكن حجته فى ذلك تقف عند إشفاقه من الأمم المتحدة وخروج مصر على قرارها ، بل كان يرى أنه لا يجوز أن تدفع مصر جيشها إلى فلسطين فتكون القوات البريطانية المرابطة على قناة السويس حائلاً بينه وبين أرض الوطن . وكان فى طبيعة النقراشى باشا ، إذا قامت بنفسه مثل هذه الحجة ألا يتزحزح عنها قيد شعرة . وما كان للدول العربية الأخرى أن تخالف مصر عن هذا القرار وهى تعلم أن مصر أكثرها عدداً وأوفرها مالاً ، وأنها الدولة التى تتاخم فلسطين ، وتتاخم الحدود الغربية التى فرضها قرار التقسيم للدولة الصهيونية ، وأنها ستحمل أوفر عبء فى هذه الحرب إذا قدر للدول العربية أن تخوضها .

وبقى هذا القرار محترماً وبقيت الدول العربية إلى يوم ١١ مايو سنة ١٩٤٨ مقتنعة بأن قوات المتطوعين كافية لمنع تنفيذ قرار التقسيم . وفى هذه الأثناء كان المتطوعون يسافرون من مصر ومن سائر البلاد العربية إلى بلد المسجد الأقصى ، تدفعها أكثر الأمر عاطفة دينية مشبوبة . وهذه العاطفة هى التى أدت بكثير من الإخوان المسلمين لينضموا إلى صفوف هؤلاء المتطوعين ، وليعاونوا الفلسطينيين للدفاع عن وطنهم .

وإننى لجالس بمكتبى فى الصباح من يوم ١٢ مايو إذ أقبل النقراشى باشا وطلب إلى

أن أحجب بابى وألا أدع أحداً يدخل علينا . فلما خلا إلىّ ذكر أنه يريد أن أعقد جلسة سرية لتعرض الحكومة على المجلس قرارها دخول القوات المصرية إلى فلسطين لقتال اليهود. وتولتنى الدهشة فسألته : وهل الدول العربية كلها متفقة على هذا ؟ وأجابنى نعم . قلت : وهـــل لدى جيشنا من العتاد الحربى ما يكفى حرب الميدان لمدة ثلاثة أشهر على الأقل ؟ وأجاب نعم وأكثر من ثلاثة أشهر . قلت : وما عسى أن يكون موقف إنجلترا من هذا الأمر ؟ وهل اتفقتم معها على خطة ؟ وأجـاب : إنجلترا لا تعارض ، وأنا مطمئن لها ، وإن كنت لا أخفى عليك أنها قادرة إذا رأت ، أن تقف منا مثل موقفها فى نفارين .

ورأيت الرجل مصمما على الأمر كل التصميم ، وقلت : إذن فليطلب أحد أعضاء الحكومة فى المجلس الجلسة السرية ؟ ففكر هنيهة ثم قال : بل الأكرم أن تطلب الحكومة هذه الجلسة السرية . فلما انصرف جعلت أفكر فى الأمر ، فى هذا التغير المفاجئ فى سياسة الحكومة المصرية والحكومات العربية جميعها وفى الدافع إليه .

ولم أكن أجهل أن أهل فلسطين وقوات المتطوعين يتعذر عليها أن تقاوم الهجاناه وغير الهجاناه من منظمات اليهود العسكرية إذا لم تمد بالسلاح والعتاد إمداداً منتظماً . لكننى كنت أسائل نفسى عن مقدرة الدول العربية عسكريًا وعن موقف إنجلترا منها ، وإنجلترا حليفة لمصر والعراق ، وصاحبه الكلمة العليا فى شرق الأردن ، وصاحبة النفوذ فى دولتى سوريا ولبنان ، بل حامية استقلالهما من غير حماية رسمية .

وفى صباح الغد مر بى دسوقى باشا أباظة وزير الخارجية الحر الدستورى فتناول حديثنا هذا الموضوع الخطير وسألته عن مقدرة مصر إذا دخلت الحرب ، فقال إن الموضوع طرح للبحث فى مجلس الوزراء ، وإن حيدر (باشا) وزير الحربية ، أكد أن الجيش المصرى وحده بجنوده وعتاده قادر من غير حاجة إلى أية معونة من الدول العربية الأخرى على أن يدخل تل أبيب ، عاصمة اليهود ، فى خمسة عشر يوماً ، وإن كل ما لديه من المعلومات تثبت له هذا القول ، وهو لذلك لا يتردد فى دفع القوات المصرية إلى أرض فلسطين لمعاقبة العصابات اليهودية التى تعتدى على العرب من أهلها اعتداء وحشيا .

انعقدت جلسة الشيوخ فى مساء ذلك اليوم وطلب رئيس الوزراء عقد جلسة سرية فى الغد لمناقشة الموقف فى فلسطين . ووافق المجلس واقترح تأليف لجنة خاصة من جميع الأحزاب تنعقد فوراً لتستمع إلى بيانات الحكومة وتقدم للمجلس رأيًا . ووافقت الحكومة وتألفت اللجنة برئاسة محمد بك الوكيل – وكيل المجلس – وعقدت اجتماعها . وحضر

رئيس الوزراء وأدلى بما لديه من المعلومات . ولم أحضر أنا هذا الاجتماع اكتفاء بما سمعته من رئيس الوزارة ومن وزير الخارجية . وقد أكد رئيس الوزارة فى اللجنة أن مصر على أتم استعداد لمواجهة الموقف وأنها ستنتصر على اليهود لا محالة وأن تمنع بذلك قيام الدولة اليهودية التى قررت الأمم المتحدة قيامها حين أقرت تقسيم فلسطين .

وقد ذكر أعضاء اللجنة من بعد أنهم أوضحوا لرئيس الوزارة جسامة المسئولية التى يأخذها على عاتقه لدفع المجلس للموافقة على القرار الذى أبرمه مجلس الوزراء ،وأن بعضهم ذكر له أن عتاد الجيش ليس بالقدر الذى يستطيع به خوض معارك حامية فى الميدان ، ولكن رئيس الوزراء نفى كل سبب للتردد وأكد أن لديه العتاد والقوات وكل ما تقتضيه الحرب . ووجد من بعض الأعضاء فى اللجنة مشجعاً يدفعهم حماس دينى إسلامى لتأييد ماطلب ، ولذلك رأت اللجنة بالإجماع الموافقة على قرار مجلس الوزراء .

وعقدت الجلسة السرية فى الغد وعرض عليها الموضوع وقرار اللجنة . وكان إسماعيل صدقى (باشا) عضو المجلس معارضاً فى دخول الجيش المصرى أرض فلسطين ، وكانت حجته أنه يعلم ، وقد كان رئيس وزارة إلى أواخر سنة ١٩٤٦ ، أن الجيش المصرى تنقصه أسلحة كثيرة ، وينقصه العتاد اللازم والكثير من الأسلحة إذا خاض الحرب وكان يخشى فضلا عن ذلك أن تعتبر الأمم المتحدة دخول الجيوش العربية فلسطين تحدياً لقرار التقسيم فتفرض على الأمم العربية ، ومنها مصر عقوبات لا طاقة لها بها ، أو تمد اليهود بالأسلحة والعتاد وتمنعها عن مصر والأمم العربية فتدور الدائرة عليها ، وأن مصر لا مصلحة لها على أية حال فى خوض معركة لا شأن لها بها ولا ناقة لها فيها ولا جمل .

حملت آراء صدقى (باشا) الكثيرين على التفكير فى الموقف . لكن الردود عليه أضعفت من تردد المترددين . فقد أكد رئيس الوزارة مرة أخرى أن لدى الجيش المصرى السلاح والعتاد لخوض الحرب شهوراً عدة ، وأيد اللواء أحمد عطية (باشا) تصريح رئيس الوزراء ، وكان عطية (باشا) إلى أشهر مضت وزيراً للحربية معه كما كان وزيراً للحربية مع صدقى (باشا) . كذلك تكلم فؤاد سراج الدين (باشا) باسم المعارضة الوفدية فأيد الوزارة تأييداً حارًّا ورد على صدقى (باشا) رداً عنيفاً وحبذ دخول القوات المصرية فلسطين . وكان من أثر ذلك أن انسحب صدقى (باشا) من الجلسة وأن قرر مجلس الشيوخ دخول القوات المصرية فلسطين بإجماع الآراء .

أكتب هذا الكلام اليوم بعد انقضاء سنوات على تلك الجلسة السرية التاريخية ،

وأكتبه وقد انتهت الحرب ، وأصبحت إسرائيل من الناحية العملية دولة قائمة على أرض فلسطين ، وقد عقدت بين إسرائيل وبين الدول العربية هدنة دائمة ، وقد أعلنت أمريكا وإنجلترا وفرنسا أنها تكفل بقاء الحالة فى الشرق الأوسط بكل الوسائل المنصوص عليها فى ميثاق الأمم المتحدة وفى غير ميثاق الأمم المتحدة – أكتب هذا الكلام وأنا لا أزال أسائل نفسى عن السبب فى ارتداد الدول العربية عن سياسة معاونة أهل فلسطين والمتطوعين الذين ينضمون إليهم لقتال اليهود ، إلى سياسة الزج بقواتها الرسمية المسلحة إلى أرض المعاد ، أهى الدول العربية التى اندفعت إلى هذه السياسة مختارة ، أم دفعت إليها كارهة ؟ وهل كانت تقدر نتائجها تقديراً صحيحاً ، أو كانت تؤمر فتأتمر ؟ ومن ذا الذى يأمرها ولأى سبب ؟ سيرى القارئ من بعد أننى جمعت معلومات كثيرة عن حرب فلسطين ، وأنا مع ذلك لا أستطيع أن أجيب جواباً مقنعاً عن هذه الأسئلة .

ظن قوم أن إنجلترا هى التى شجعت الدول العربية لتدفع قواتها المسلحة إلى أرض فلسطين . وقيل يومئذ إنها لم تكن راضية عن قيام دولة إسرائيل بعد الذى رأته من تنكر اليهود لها فى أثناء انتدابها ، وأنها وعدت الدول العربية أنها ستمدها ولو سراً ، بكل ما تحتاج إليه من معونة للانتصار فى هذه الحرب . وعلى الرغم من أن عبد الرحمن عزام (باشا) أخبرنى بأن إنجلترا بعثت إلى الدول العربية جميعاً كتاباً تحذرها من محاربة إسرائيل وتخوفها مغبة هذه الحرب ، لقد قيل إن إنجلترا لجأت فى هذا الوقت إلى سياسة مزدوجة ، فكتبت ترد العرب عن قتال اليهود لتكون لها الحجة القائمة أمام الأمم المتحدة ، وأوعزت عن طريق رجالها الرسميين أو غير الرسميين تشجع الدول العربية على دفع قواتها إلى فلسطين ووعد هذه الدول بالمساعدة ، ثم وقفت موقف المتفرج تمد يد العون تارة وتقبضها أخرى . ولم تكن عبارات عزام (باشا) نفسه تنفى هذا الاحتمال ، فقد قال لى غير مرة إن إنجلترا بدأت تخون الدول العربية بعد أيام معدودة من بدء دخول قواتها فى فلسطين .

وظن غير هؤلاء أن الدول العربية هى التى أرادت أن تقوم من تلقاء نفسها بمظاهرة عسكرية ، وأنها كانت مقتنعة بأن الأمم المتحدة تنكر تصرفها وتراه خروجا على القرار الذى أصدرته ، وقد تفرض عليها عقوبات اقتصادية ، وعند ذلك تنسحب معلنة أنها تلقى على الأمم المتحدة تبعة موقف ظالم فى الحياة الدولية تخشى آثاره على السلام العالمى .

وذهب غير هؤلاء وأولئك مذاهب فى تأويل هذا الانقلاب المفاجئ فى سياسة الدول العربية . فقد كانت هذه الدول مصممة ، إلى يوم ١١ مايو ، على ألا تدخل قواتها

الرسمية أرض فلسطين ، ثم تغير موقفها فجأة بعد ذلك اليوم . وليس طبيعيًّا ألا تكون لهذا الانقلاب مقدمات لعل الساسة العرب لم يقفوا كلهم على تفاصيلها . لكن بعضهم على الأقل كان يعرف الكثير من هذه التفاصيل . وأرجو ألا يحرم التاريخ من مذكرات يطبعها العارفون ، تميط اللثام عن الحقيقة ، وتتيح لهذه الدول أن تفيد لمستقبلها من درس قاس وتجربة مؤلمة ألمت بالدول العربية ، وبجامعة الدول العربية .

وافق البرلمان الحكومة على أن تدخل القوات المصرية المسلحة فلسطين لمعاقبة العصابات اليهودية المعتدية على العرب . وكانت هذه القوات على حدود مصر ، أو كانت قد تجاوزتها فعلا ساعة صدر هذا القرار . وفى الساعة التى نشرت فيها الصحف قرار البرلمان المصرى نشرت كذلك أن القوات المسلحة للدول العربية المختلفة دخلت أرض فلسطين كل من ناحيتها . ومن يومئذ جعلت الصحف تنشر يومياً أنباء الجيوش وتقدمها ، وأنباء الطائرات المحاربة المصرية وإغاراتها وإلقائها القنابل على تل أبيب .

واشرأبت أعناق المصريين من كل الطبقات تتابع أنباء هذا التقدم وهذه الغارات العربية على عاصمة العدو بشغف أى شغف .

لاحظت وأنا أتابع البلاغات الرسمية أن الجيوش العربية لا تلقى مقاومة لأنها تتقدم فى المناطق التى خصصها قرار الأمم المتحدة للعرب من أهل فلسطين ، وأنها لما تبلغ الأجزاء التى عينت لإسرائيل فيما خلا أجزاء من منطقة النقب . ومنطقة النقب صحراء غير مأهولة فيما عدا محلات صغيرة أنشأها اليهود ها هنا وهناك . عند ذلك دار بخاطرى أن القوات المصرية تكون أكثر إقداماً على القتال وعلى التضحية فى الحرب إذا علمت أن منطقة النقب التى تحتلها ستضم إلى مصر . وإنى لفى «كلوب محمد على» ذات مساء إذ لقيت إبراهيم عبد الهادى (باشا) ، وكان يومئذ رئيساً للديوان الملكى ، وعبد المجيد إبراهيم صالح (باشا) ، وكان وزيراً للأشغال ، فذكرت بأن الجيوش العربية كلها تسير فى مناطق مخصصة لعرب فلسطين ، ولهذا لا تلقى مقاومة ، وأن إكبار البلاغات الرسمية لتقدمها وهى فى هذه المنطقة ليس من حسن السياسة فى شىء ، لأنها إذا التحمت يوماً بقوات معادية فلم تتقدم بمثل هذه السرعة خيف أن يؤثر ذلك على الروح المعنوية تأثيراً غير حسن . وأجابنى إبراهيم عبد الهادى (باشا) فى شىء من الانفعال بأن مثل هذا الكلام ليس من المصلحة الوطنية فى شىء ، وأن صيغة البلاغات يجب أن تكون على النحو الذى تصدر به .

وذكرت كذلك رأيى فى أن تضم منطقة النقب لمصر يوم تستقر قواتنا المصرية المسلحة

عليها ، فاعترض عبد المجيد إبراهيم (باشا) بأننا دخلنا لإنقاذ العرب من عدوان اليهود فليس يجوز أن نبدو فى ثوب من يريد تحقيق مأرب ذاتى .

استمرت أنباء الغارات الجوية تتوالى فى الأيام الأولى لدخول قواتنا فى فلسطين . وإننى لفى مكتبى برئاسة مجلس الشيوخ بعد أسبوع من بدء القتال إذ قيل لى إن الضابط الطيار سعد الصادق قد قتل . فأسرعت أتقصى النبأ فقيل لى إن خمسة من خيرة طيارينا بينهم سعد ، صدر لهم الأمر بمهاجمة مطار للأعداء فى فلسطين وأن طائرات بريطانية تصدت للطائرات المصرية وضربتها ، ثم قيل إن هذا المطار ليس لليهود ولكنه للبريطانيين ، وإن قائد القوات البريطانية فى فلسطين أبلغ قيادة الطيران المصرى بعدم التعرض لهذا المطار أو تدفع الطائرات البريطانية هجوم الطائرات المصرية . وإن القائد المصرى أغفل تبليغ هذه الإشارة ، فصدرت الأوامر لطياريناالمصريين لمهاجمة المطار فقابلتهم الطائرات البريطانية واشتبكت معهم وقتل ثلاثة من الطيارين المصريين . وقد أزعج هذا النبأ كثيرين لأن اليهود لم تكن لهم طائرات تستطيع مقاومة الطائرات المصرية .

ساورنى لهذا النبأ أشد الأسف والدهشة . ففلسطين تجاورنا وطائرات شركة مصر للطيران تطير بانتظام من القاهرة إلى اللد كل يوم . وطبيعى أن يعرف رجال الطيران المدنى مطارات فلسطين جميعاً . وطبيعى أكثر من ذلك أن يعرف رجال الطيران الحربى هذه المطارات . فكيف غاب عن هؤلاء وأولئك ، وكيف غاب عن قلم المخابرات فى جيشنا ، أن يعرف مطارات اليهود ومطارات البريطانيين . ودهش كثيرون كما دهشت وجعلنا نفكر فى المستقبل ونرجو الله أن يوفق الدول العربية فى هذه الحملة التى أقدموا عليها .

لا أستطيع أن أحدد ما لهذا الخطأ من دلالة على كفاية قيادتنا المصرية . لكنى اتصلت بى من بعد أنباء تثير العجب . ذكر لى صديقى حافظ عفيفى (باشا) أنه كان بمكتب حيدر (باشا) وزير الحربية يوماً وأن الوزير اتصل بقائد القوات فى فلسطين وتبادل معه حديثاً خاصاً باستيلاء القوات المصرية على بئر سبع . كان رأى الوزير أنه يجب الاستيلاء على بئر سبع فى ذلك اليوم . وكان رأى القائد الذى يتحدث من الميدان أن الاستيلاء على الموقع فى اليوم نفسه يكلف الجيش تضحيات وخسائر يمكن تفاديها إذا حوصرت بئر سبع ثلاثة أيام . وكان جواب حيدر (باشا) : كلا لابد من الاستيلاء عليها اليوم بكل ثمن فلهذا أثر سياسى مطلوب فى مصر . والتقيت فى مكتب جمال الدين (بك) العبد بضابط كان فى فلسطين قص علىّ قصة أكثر من السابقة إثارة للدهشة . فقد نشرت الأنباء قبل ذلك

أن طوربيداً إسرائيلياً نسف البارجة المصرية « مصر » ثم نجت بارجة أخرى من الطوربيد الذى كان منصوباً لها بمحض الصدفة . وقد ذكر هذا الضابط بمكتب جمال الدين (بك) أن البارجتين المصريتين كانتا فى موقف المهاجمة لقوات إسرائيل ، وأنهما أبلغتا القيادة البحرية أنهما على أتم الاستعداد لضرب الأهداف التى أمامهما ضرباً محكماً . وأمرتهما القيادة بالانتظار حتى تتصل بالقاهرة تليفونياً وتتلقى أوامرها . وفى الدقائق التى انقضت والتى كانت القيادة البحرية تنتظر أوامر القاهرة لتبلغها إلى البارجتين أطلق الطوربيدان ، فنسفت البارجة مصر ، واضطرت البارجة الأخرى للانسحاب مخافة أن يصيبها طوربيد آخر ينزل بها إلى قاع البحر .

سقت هذين المثلين تذكيراً بما كان يقال من أن حملة فلسطين كان مركز قيادتها فى القاهرة . وهذا وضع لم يحدثنا تاريخ الوقائع عن شىء من مثله . لكن تأويله أن الذين أسندت لهم القيادة المحلية فى فلسطين لم يكونوا موضع الثقة بالقدر الذى يسمح لهم بتحمل التبعة عن تصرفاتهم أمام الوزير ، فكان الوزير يتولى القيادة بنفسه من مكتبه . وهذا التأويل يبدو واضحاً حين نذكر أن قيادة القوات أسندت أول أمرها إلى المواوى (بك) ، ولم يكن قد بلغ فى المراتب العسكرية درجات عليا ، ولم تكن له تجارب فى الوقائع الحربية تؤهله لهذه القيادة . أنا لا أعرف المواوى (بك) ، والذين يعرفونه يقولون إنه رجل سمح النفس رضى الخلق ، لكنهم يذكرون أنه لم يتول القيادة قط ، وأنه إنما عهد إليه بتدريب القوات المصرية فى رفح قبل دخولها فلسطين من غير أن تكون لديه الفكرة عما هو مقبل عليه من دخول فلسطين أو قيادة قوات مقاتلة فيها .

* * *

كان منتظراً أن تعنى الأمم المتحدة بما حدث وأن تحاول جهدها تلافيه . وهى المسئولة الأولى عن تقسيم فلسطين ، وهى مسئولة بحكم ميثاقها عن ملافاة أخطار الحرب حيث تقع من أرجاء العالم . وقد عنيت المنظمة فعلاً بما وقع ، وأوفد مجلس الأمن الكونت فولك برنادوت السويدى وسيطاً بين إسرائيل والدول العربية يلتمس حلا للموقف . وجاء الرجل إلى فلسطين وقابل ساسة الدول العربية كما قابل ساسة إسرائيل . وأذكر يوماً قابلت فيه النقراشى (باشا) لبعض مسائل تشريعية فعلمت أن الكونت برنادوت على موعد معه . فسألت رئيس الوزراء عما إذا كان الكونت يعرض اقتراحاً معيناً فأخبرنى أنه لم يره بعد ولكنه سمع أنه يفكر فى

وقف القتال إلى أن يتمكن من الاهتداء إلى حل للمشكلة . ولما سألت النقراشى (باشا) عن رأيه فى هذه الهدنة أخبرنى أنه لم ينته فى الأمر إلى رأى بعد . ولما لم أكن على علم دقيق بمجرى القتال ، لم أجازف بأن أبذل له فى الأمر أية مشورة .

وكانت أنباء القتال كما تصفها البلاغات الرسمية مطمئنة إلى حد يشعر معه من يقرؤها أو يسمعها أن الدول العربية ، توشك بالفعل أن تدخل تل أبيب . من أجل هذا لم يتحمس الرأى العام لفكرة وقف القتال أو إعلان الهدنة ، بل كان الناس جميعاً ، على اختلاف طبقاتهم ، يميلون إلى مواصلة القتال حتى ينهزم اليهود وتدخل الجيوش العربية بالفعل عاصمة إسرائيل ، ثم يبدأ الحديث فى الهدنة أو فى الصلح . وكان لهم عذرهم من ذلك اقتناعهم بفوز العرب وتضييقهم الخناق على اليهود فى كل مكان ، وفى كل ميدان . على أنهم مع ذلك كانوا يتساءلون ما عسى أن تصنعه الأمم المتحدة إذا لم تقبل الدول العربية الهدنة ؟ هل يتخذ مجلس الأمن إجراء من الإجراءات المنصوص عليها فى الميثاق ومن بينها توقيع الجزاءات الاقتصادية أو الذهاب إلى أبعد من هذه الجزاءات الاقتصادية .

واستمرت اتصالات الدول العربية زمناً اجتمع بعده وزراء خارجية هذه الدول بعمان عاصمة شرق الأردن ، وأسفر اجتماعهم عن قبول الهدنة لمدة ثلاثة أسابيع . وكان الموعد الذى تحدد للهدنة الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعة ١١ يونيو سنة ١٩٤٨ وكنت يومئذ مسافراً مع أسرتى نمضى الصيف على شاطئ البحر فى بور فؤاد ، وفى الساعة التاسعة دوى صوت حيدر (باشا) وزير الحربية المصرية ، من راديو السيارة ، يعلن وقف القتال وبدء الهدنة .

كنت مقتنعاً يومئذ بأن إعلان الهدنة معناه انتهاء القتال بين الدول العربية وإسرائيل إلى غير عودة ، وبأن الأمم المتحدة ستتدخل تدخلاً إيجابياً بكل وسائلها لفض هذا النزاع المسلح الذى يوشك أن يهدد السلام العالمى ، وأن الجيوش المتحاربة ستعود كلها إلى أوطانها عما قريب .

وبقيت أتتبع الأنباء وأنا بمصيفى بكل عناية . وكنت أتوقع أن أسمع فيها أن الكونت فولك برنادوت وسيط الأمم المتحدة ، قد وضع مشروعاً مبدئياً للصلح ، وأن مفاوضة ستبدأ على أساس هذا المشروع ، وإذا بدأت المفاوضة استطال أجلها بطبيعة الحال ، ثم انتهت إلى نتيجة أياً تكون .

وبدا من الإذاعات المختلفة أن برنادوت يبذل جهداً ضخماً يرجو أن يوفق فيه إلى غاية تقر السلام فى نصابه وتعيد الجيوش إلى معسكراتها . وكم عجبت لدى سماعى الإذاعة

فى اليوم الأخير من أيام الهدنة حين تلا المذيع أن برنادوت عرض مد الهدنة ثلاثة أيام وأن الدول العربية رفضت هذا العرض وأصدرت الأمر إلى جيوشها بالعود إلى القتال . واقتنعت إذ ذاك بأن الدول العربية قد تزودت من العتاد وقد نظمت صفوفها تنظيماً أقنعها بأنها قادرة على التقدم من المواقع التى عسكرت فيها يوم الهدنة لتقتحم على اليهود عاصمتهم فى أيام معدودات .

وعاد القتال بين جيوش العرب وجيوش اليهود . وتقضت أيام والناس فى شغف لمعرفة ما يدور فى ميادين القتال ، وهم ينتظرون بين ساعة وأخرى ، وبين يوم وآخر أن تطالعهم البلاغات الرسمية بدخول الجيوش العربية تل أبيب .

وقد كان لهم كل العذر فى توقعهم هذا . فقد كانت البلاغات الرسمية التى تصدرها السلطات المصرية كلها التفاؤل الذى لا تفاؤل بعده . وإنهم لكذلك إذ أذاعت هذه البلاغات الرسمية أن جناح الجيش الأردنى المتصل بالجيش المصرى ، والمرابط فى بلدتى اللد والرملة ، قد تخلى عنهما ، فاستولى عليهما اليهود .

من يومئذ بدأت حركات الجيوش العربية تبعث إلى النفوس شيئاً من الريبة ، وإن أبى الناس أن يصدقوا أن قوة إسرائيل تستطيع أن تتغلب على جيوش الدول العربية الست المشتركة فى القتال . وبدأ الناس يسمعون بعد ذلك عن تخلى بعض الجيوش العربية عن البعض الآخر ، وعن تجسس بعض العرب الفلسطينيين لحساب اليهود . لذا بدأ التفاؤل الأول يذوى شيئاً فشيئاً ، ثم بدأت الأمم المتحدة تظهر حرصها على إعادة السلام إلى منطقة الشرق الأوسط ، وجعل الناس يتكلمون فى اقتراح برنادوت قيام هدنة ثانية بين الدول المتحاربة .

كان المؤتمر البرلمانى الدولى سيجتمع فى روما فى الأسبوع الأول من شهر سبتمبر من ذلك العام . وقد سافرت إلى العاصمة الإيطالية أنا وزملائى أعضاء الوفد البرلمانى المصرى لهذا المؤتمر قبل انعقاده بأيام ونزلنا فندق اكسلسيور . وإننى هناك إذ حدثنى بالتليفون شخص لا أعرفه وذكر لى أنه يريد مقابلتى من قبل السيد الياهو ساسون . وساسون موظف كبير فى وزارة خارجية إسرائيل قابلنى بالقاهرة غير مرة فى رياسة مجلس الشيوخ وفى منزلى ، وكان ذلك قبل قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين وبعده ، وحاول إقناعى بأن من الخير تفاهم مصر مع اليهود ، وساق لى من الحجج مثل ما كان يسوقه ذلك الشخص الذى تحدثت عنه فى أول هذا الفصل . ولما كان الموقف قد تغير بعد قرار الأمم المتحدة ، وبعد

قيام الحرب بين اليهود والعرب ، حددت موعداً لهذا الشخص علّى أقف منه على اتجاه اليهود فى هذا الظرف الجديد . فلما جاء إلىّ بالفندق سألنى عما إذا كنت أطيل مقامى بإيطاليا بعد المؤتمر البرلمانى ، لأن المسيو ساسون يريد أن يقابلنى فى الأيام الأولى من أكتوبر . فذكرت له أننى مسافر إلى شمال إيطاليا أحضر المؤتمر التجارى ومؤتمر السياحة اللذين يعقدان بجينوا ورابالو ، وأنى سأسافر فى الأسبوع الأخير من سبتمبر إلى جنيف بسويسرا وسأقيم بها عشرة أيام أو أسبوعين . وحاولت أن أقف من هذا الشخص على ما يريده مسيو ساسون من مقابلتى فلم يقل شيئاً ذا بال .

وسافرت إلى شمال إيطاليا ثم انتقلت إلى جنيف وهناك قابلنى مسيو ساسون وبدأ يحدثنى فى عقد الصلح بين مصر وإسرائيل . قال : أصارحك بأننا لا نعنى من الدول العربية بغير مصر ، وأننا حريصون كل الحرص على إقامة العلاقات بيننا وبينها على أساس من المودة والصداقة . فقلت : وعلى أى أساس تريدون أن يقوم هذا الصلح . أنا لا أعرف الخطة التى قررتها الحكومة المصرية ولكن أريد أن أعرف عزمكم أنتم ، فإذا اقتنعت بأن فيه ما يصلح أن يكون أساس حديث فى أمر الصلح أفضيت به إلى الحكومة المصرية ، وأود أن أذكر لك رأياً شخصياً لى لم أفاتح به أحداً من المسئولين فى مصر . ذلك أن تتنازلوا أنتم صراحة عن منطقة النقب لمصر وأن تعلنوا استعدادكم لهذا التنازل قبل كل حديث . وأجابنى الرجل فى لهجة لم أرضها : وما حاجتكم إلى النقب ولديكم أنقاب كثيرة لم تصلحوا منها شيئاً . يريد أن صحارى مصر الواسعة لم تنل منا عناية أو إصلاحاً . وكفتنى هذه العبارة لأكف عن المضى فى الحديث فقلت : أظن إذن أنه لا فائدة من الحديث فيما قصدت إليه .

وكنت أرمى من مواجهته بمسألة النقب إلى غرضين . أولهما : تشديد عزائم الجنود المصرية إذا هى علمت أنها تحارب فى سبيل مصلحة قومية ، وأن تضحياتها لن تذهب سدى . والثانى جس النبض لمعرفة ما يريد اليهود من الحديث مع مصر وهل هو يدل على أنهم سئموا القتال فهم يريدون الصلح مخلصين ، أو أنهم يريدون بهذا العرض أن يفرقوا كلمة الأمم العربية بعد الذى كان من تخلى الجيش الأردنى فى اللد والرملة وتعرض جناح الجيش المصرى بهذا التخلى لهجوم اليهود عليه . فلما رأيت مسيو سساسون يتحدث بلهجة لم ترضنى آثرت عدم المضى فى حديث لا جدوى من المضى فيه . .

وعدت إلى مصر فى منتصف أكتوبر وليس فى نيتى أن أذكر لأحد شيئاً عما داربينى

والمسيو ساسون . وصرفنى عن التفكير فى هذا الأمر أن أوسع الصحف الموالية للحكومة انتشاراً انتهزت فرصة غيابى عن مصر فحملت علىّ حملة غير كريمة فصلتها فى موضع آخر من هذا الكتاب ، فأقنعنى ذلك بأن أى حديث أقضى به إلى الحكومة فى هذا الموضوع سيتخذ وسيلة لتغذية هذه الحملة . من ثم لم يكن لهذا الحديث أية نتيجة ، ولم أعره من جانبى أى عناية .

كان القتال بين العرب واليهود فى فلسطين يجرى فى هذا الوقت على نحو لا يبعث إلى نفوس العرب ، ولا يبعث إلى نفوسنا فى مصر ، أى معنى من معانى الرضا . وقد بدأت الجيوش المصرية تنسحب من مواقع احتلتها ، وفى مقدمتها بئر سبع ، وقد حصرت قوات مصرية فى الفالوجا وقد قيل إن الجيوش اليهودية تتقدم إلى الحدود المصرية ، ثم قيل إن هذه الجيوش تخطت الحدود المصرية . هذا وكان الكونت فولك برنادوت وسيط الأمم المتحدة يسعى فى هذه الأثناء لوضع أساس للصلح بين إسرائيل والدول العربية ، فلما يئس من ذلك رأى أن يرفع إلى الأمم المتحدة تقريراً برأيه فى الموقف وطريقة حله . وقد رفع هذا التقرير بالفعل واقترح فيه أن تعطى منطقة النقب للعرب ، وأن يعوض اليهود عن ذلك بأن يعطوا منطقة الجليل الغربى المجاور للبنان . وكان هذا التقرير سيعرض فى الجمعية العامة للأمم المتحدة حين انعقادها بباريس فى شهر سبتمبر من سنة ١٩٤٨ .

وإن الناس لينتظرون انعقاد الجمعية العامة للأمم المتحدة إذ وردت الأنباء أن اليهود اغتالوا الكونت برنادوت وقضوا على حياته . وأثار هذا الحادث الوحشى ثائرة العالم كله فلم يعرف فى التاريخ أن الرسل تقتل . وبرنادوت لم يكن إلا رسول الأمم المتحدة للفريقين المتحاربين فى فلسطين . هذا إلى أن الرجل كان نزيه الغاية ، يريد خير الإنسانية وإن أغضب اليهود والعرب جميعاً . ولهذا نظر الناس فى كل الأمم إلى التقرير الذى وضعه على أنه وصية لرجل شريف ، وأن من الواجب على الأمم المتحدة أن تقر هذه الوصية وتنفيذها .

ما عسى أن يكون موقف الدول العربية من هذه الوصية ؟ لقد كانت تدرك أن لها مصلحة كبرى فى قبولها . وكانت إنجلترا وأمريكا قد بعثت إليها تبلغها أنها إذا قبلتها وجدت تأييداً تاماً من الدولتين الكبيرتين ومن مجموعة الدول الدائرة فى فلكهما ، وهذه المجموعة تؤلف أغلبية عظمى فى الجمعية العامة للأمم المتحدة . ولم يكن ثمة ريب فى أن إسرائيل ستقف بكل جهدها فى سبيل هذه المقترحات التى أدت إلى أن يقتل اليهود برنادوت ، فإن هى فعلت انقلبت الكفة فى الأمم المتحدة وأصبح العرب موضع عطفها بعد أن كان اليهود موضع

هذا العطف . لكن الدول العربية نظرت إلى المسألة من ناحية أخرى . فهى إن أقرت مقترحات برنادوت أقرت التقسيم الذى طلبته الأمم المتحدة ، والتى قامت الدول العربية فى وجهه وحاربته بقواتها المسلحة . ألا يكون هذا دليلاً على أنها كانت معتدية فى قتالها إسرائيل اعتداء لا مسوغ له بعد قرار التقسيم . وهل تطمئن الدول العربية إلى حسن النية فى عرض إنجلترا وأمريكا عليها أن تقبل وصية برنادوت . هذه كلها أمور تدعو إلى الحيرة وإلى طول التفكير .

لم يكن ثمة داع يدفعنى إلى التفكير فى الموقف الذى تتخذه مصر والدول العربية فى هذا الأمر . وقد كانت الدول البرلمانية العربية « مصر وسوريا والعراق ولبنان » تعمل إذ ذاك على إنشاء اتحاد برلمانى عربى ، وكانت لبنان قد دعت هذه الدول إلى اجتماع يعقد بصوفر فى شهر أغسطس من تلك السنة ، سنة ١٩٤٨ . وإذ كنت أنا الذى رأست وفد مصر لدى الأمم المتحدة فى سنتى ١٩٤٦ و ١٩٤٧ فقد طلبت إلى صديقى إبراهيم دسوقى أباظة (باشا) سكرتير الأحرار الدستوريين العام أن يسأل النقراشى (باشا) رئيس الوزارة عما إذا كانت هذه الرياسة ستسند لى فى هذه السنة كذلك ، حتى أدرس الموضوعات التى ستعرض فى الجمعية العامة وأهمها موضوع فلسطين . وقد عاد فأخبرنى بأن وزير الخارجية ، أحمد محمد خشبة (باشا) ، يحرص على أن يتولى الرياسة فى هذه السنة التى تعقد فيها الجمعية بباريس . ومع أننى سافرت بعد ذلك مباشرة إلى لبنان وكنت سأسافر بعد أيام من عودتى منها إلى روما لحضور المؤتمر البرلمانى الدولى ، فقد اتخذت مسألة رئاسة وفد الأمم المتحدة مادة للحملة علىّ من جانب الصحف الموالية للحكومة حملة أشرت إليها من قبل .

أعفانى إسناد الرئاسة إلى خشبة (باشا) عن التفكير فى الموقف الذى تتخذه مصر والدول العربية من مقترحات برنادوت . على أننى علمت – حين عودتى من أوربا بعد اشتراكى فى مؤتمر روما البرلمانى – أن اللجنة السياسية اجتمعت وفكرت فى الأمر ثم ظلت فى موقف الحيرة الذى أشرت منذ حين إليه . فلما سافرت وفودها إلى باريس وبدأت أعمال الجمعية العامة اجتمع رؤساء هذه الوفود وتباحثوا من جديد فى موقفهم من وصية الرجل الذى قتله اليهود ، هذه الوصية التى كانت موضع عطف شديد من أغلبية الأمم المتحدة . ولقد أخبرنى من اتصل بهذه الاجتماعات وبهؤلاء الرؤساء أن دقة الموقف لم تخرجهم من حيرتهم وأنهم قبلوا أخيراً ما اقترحه عليهم بعض الممثلين السياسيين لدولهم أن يبلغوا إنجلترا وأمريكا أنهم لا يعارضون ما اقترحه برنادوت ، ولكنهم لا يستطيعون أن يصوتوا صراحة معه . فإذا أقرته الأمم المتحدة قبلوه أساساً للصلح وتسوية الموقف فى فلسطين .

كان اليهود يبذلون غاية الجهد فى هذه الأثناء لإقناع الدول كلها بأن موقف العرب ليس له من مظهر الجد ما يسمح من بعد بالاعتماد عليهم ، وبأن اقتراح برنادوت لا يسمح لإسرائيل بالتوسع من غير أن تضطر إلى اتخاذ موقف غير ودى إزاء الدول العربية وبأنهم سينفقون فى إصلاح منطقة النقب من الجهد والمال ما لم ينفق العرب شيئاً منه فى أثناء القرون الطويلة المتعاقبة التى كان هذا النقب فى أثنائها فى حكمهم . واستطاع اليهود ببراعتهم أن يكسبوا إلى جانبهم عدداً من الدول كفل لهم عدم نفاذ ما اقترحه برنادوت ، وكذلك انفضت دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة ولم يفد العرب منها شيئاً مما كانوا يطمعون فيه .

كان السكرتير العام للاتحاد البرلمانى الدولى قد بعث إلينا يخبرنا أن لجنة الاتحاد التنفيذية ستعقد بباريس فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ وبأن لورد ستانسجيت رئيس مجلس الاتحاد والكونت كارتون دفيار رئيس الشرف سينزلان وينزل هو معهما بفندق لوتسيا بباريس فحجزت لنفسى غرفة بهذا الفندق نفسه . ووصلنا باريس بالطائرة فى المساء .

وما كان أشد عجبى إذ دق التليفون بغرفتى فى الصباح ، وإذ علمت أن محدثى هو بعينه الشاب الإسرائيلى الذى لقينى بروما ، وأنه يريد أن يلقانى هو وأحد زملائه . وذكرت له أننى مشتغل ثلاثة الأيام التالية باجتماعات اللجنة التنفيذية ، وأننى سأقيم أسبوعاً بعد ذلك بباريس ، فإذا كان حريصاً على لقائى فليلقنى فى اليوم الرابع . وقد تولتنى الدهشة حين أظهر حرصه على هذا اللقاء ، فقد كنت أحسب أن ما دار بينى وبين المسيو ساسون بجنيف قد قضى على كل رجاء يدعو إلى استئناف الحديث فى موقف إسرائيل من مصر أو موقف مصر من إسرائيل ، والحوادث التى توالت بعد ذلك أمعن فى تقرير هذا المعنى . وأى جديد يريد أن يحدثنى هذا الشاب أو أن يحدثنى زميله فيه ؟

واجتمعت اللجنة التنفيذية فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى . وبعد ساعة ونصف الساعة من انعقادها ناولنى حاجب الغرفة التى نجتمع بها ورقة فضضتها فإذا عليها توقيع مدير وكالة الصحافة الفرنسية (Agence France Presse) وإذا هى تذكر أن النار أطلقت على النقراشى (باشا) رئيس الوزارة المصرية فأودت بحياته ، وإذا هذا المدير يسألنى رأيى فى هذا الحادث . وانزعجت لدى تلاوة الخبر وخرجت من فورى فقابلت مرسله وسألته إن كان ما ذكره مؤكداً ، فأنا أعلم أن النقراشى (باشا) يحيط به فى غدواته وروحاته حرس قوى يقظ . فلما أكد لى الرجل صحة الخبر اعتذرت إليه عن عدم الإدلاء بأى حديث ، وبأننى يجب أن أذهب إلى السفارة المصرية فوراً ، وعدت فاستأذنت لورد ستانستجيب وأطلعته على

الخبر فانزعج لأنه كانت بينه وبين النقراشى (باشا) مودة فى أثناء وجوده على رأس المفاوضين البريطانيين فى القاهرة فى سنة ١٩٤٦ . وذهبت إلى السفارة أستطلع أدق الأنباء ، ثم عدت بعد الظهر أتابع الاشتراك فى اللجنة التنفيذية .

أفصدّ هذا الحادث ذلك الإسرائيلى عن التشبث بمقابلتى ؟ كلا . بل خاطبنى صبح الغد بالتليفون يخبرنى أنه استاء لمقتل النقراشى باشا ، وبأن إبراهيم باشا عبد الهادى كلف بتشكيل الوزارة الجديدة ، وبأنه وصاحبه سيحضران للقائى فى الموعد الذى سبق تحديده . وكنت قد عرفت من أنباء القاهرة وتأليف الوزارة الجديدة بها أكثر مما أبلغنى . ولما كان الموعد الذى ضربته له لقيته هو وصاحبه بغرفتى وسألتهما عما جد من الحوادث مما نستطيع الحديث فيه .

وعادا يخبرانى أن إسرائيل حريصة أشد الحرص على صداقة مصر ، وأن مصر ترغب عن هذه الصداقة لأمر لا يفهمانه وأن إسرائيل قدمت لمصر ما تعتقده الأساس الصالح لعلاقاتهما فى المستقبل . وسألتهما فعلمت أن إسرائيل بعثب بمشروع لمعاهدة مودة وصداقة تعقدها مع مصر ، وأن هذا المشروع أبلغ إلى إبراهيم عبد الهادى (باشا) وهو فى رياسة الديوان ، وأنهم لم يتلقوا منه رداً . وسألتهم إن كانت لديهم صورة من هذا المشروع أستطيع الاطلاع عليها ، فوعدا بإرسالها لى صبح الغد ، وبأن نلتقى مرة أخرى بعد يومين لأبلغهما رأيى فى هذا المشروع . وصدق الرجلان . فقد تلقيت صبح الغد من ذلك اليوم مظروفاً فضضته فإذا به هذا المشروع الذى حدثانى عنه .

وتلوت مقدمة المشروع ومواده فتولانى العجب أشد العجب . لقد صيغ على غرار المعاهدة المصرية البريطانية التى عقدت فى سنة ١٩٣٦ . لكن إسرائيل تملى فيه على مصر ما هو أقسى مما ورد فى معاهدة سنة ١٩٣٦ . فالدولتان الساميتان المتعاقدتان يجب ألا تتخذ أيهما سياسة فى البلاد الأخرى تناقض سياسة الدولة الأخرى ، ويجب أن تخف أيهما لنجدة الدولة الثانية إذا تعرضت للاعتداء ، ويجب أن تعامل كلتاهما بشروط الدولة الأكثر رعاية فى أراضى الدولة الأخرى ، إلى غير ذلك من شروط أثارت دهشتى ، حتى لقد ظننت أن المشروع لم يجرؤ أحد على إرساله إلى مصر ، وأنهما أخبرانى بذلك ليقفا على رأيى فيما تعتزم بلادهما التقدم به إلى الدولة العربية الكبرى .

فلما حضرا صبح الغد سألتهما من جديد : أحق أن هذا المشروع أرسل إلى مصر فأكدا لى أنه أرسل إلى الديوان الملكى ، وأنه سلم إلى إبراهيم عبد الهادى (باشا) رئيس

الديوان ، وأن الحكومة المصرية لابد قد اطلعت عليه . قلت : ولكنكما تعلمان أن المصريين جميعاً يعترضون اليوم أشد الاعتراض على معاهدة سنة ١٩٣٦ ، فليس بينهم حزب وليس بينهم رجل سياسى يستطيع أن يصرح اليوم بأنها مرضية لمطالب وطنه . فكيف تطمعون أنتم فى أن ترضى أية حكومة مصرية عن هذا المشروع الذى أطلعتمانى عليه وهو أشد وطأة على مصر من معاهدة سنة ١٩٣٦ . قالا : ولكن توقيع معاهدة بيننا وبين مصر سيكون المقدمة لإلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ . فستعمل إسرائيل بما لديها من مختلف الوسائل لتعاونكم على إلغائها . قلت وقد استفزنى هذا الكلام : إن مصر قادرة بمفردها على تحقيق أهدافها ، وستبلغ ما تريد عما قريب . قالوا : إذن فأشر علينا بما يجب أن نصنعه لنوطد بيننا وبين مصر علاقة مودة وصداقة . قلت : لا تظنوا أن الموقف الحاضر يعاون على أى إجراء رسمى يحقق هذه الغاية ، فلا تزال الخصومة بين مصر وإسرائيل على أشدها . ومصر إلى اليوم لم تعترف بإسرائيل ، ولست أظن أنها تعتزم الاعتراف بها عما قريب . أما وقد سألتمانى أن أشير عليكما فالرأى عندى أن تتركا الأمور عاماً أو عامين أو ثلاثة ، وألا تثيروا أنتم أية ثائرة من جانبكم . وكثيراً ما حل الزمن مشكلات عجز أقدر الساسة وأمهرهم عن حلها . فالزمن هو الذى يثبت من الأشياء ما هو قادر على الحياة ويمحو ما هو غير قادر عليها . أما إذا تعجلتم الأمور فلشد ما أخشى ألا تبلغوا من تعجلكم إلى غاية مع مصر أو غير مصر .

فكرت بعد ذلك طويلا فيما سمعت من رجال إسرائيل خلال هذه السنة الأخيرة : أصحيح أنهم لا يعنون من الدول العربية بغير مصر ، أم أن لهم اتصالات بسائر هذه الدول . وقد تكون اتصالاتهم هناك أسعد حظاً من اتصالاتهم بى أو بغيرى من المصريين ؟ لقد ضعف تضامن الجيوش العربية ضعفاً ظاهراً منذ انسحب جيش الأردن ، أو الجيش العربى ، على ما كان يسميه الملك عبد الله ، من اللد والرملة . وقد نشرت الأنباء منذ بدأت مفاوضات الهدنة بوساطة وسيط الأمم المتحدة الذى حل محل الكونت برنادوت السويدى ، المستر رالف بانش الأمريكى ، أن هناك اتصالات مباشرة بين إسرائيل وشرق الأردن ، وأن العراق فوض شرق الأردن ولم يفوض دولة عربية سواها فى التحدث باسمه . وقد انسحبت قوات لبنان بعد قليل من بدء الحرب ووقفت عند حدود بلادها . ترى أيكون الأمر قد بلغ إلى حيث استطاعت إسرائيل واستطاعت السياسة الدولية أن تفرق بين الدول العربية ، وأن تصل بين كل واحدة منها وبين إسرائيل لعقد صلح منفرد ؟

لم أقف طويلا عند هذه الأسئلة ولم أحاول الإجابة عنها . ولم يكن لدى معلومات كافية

عن سياسة الحكومة المصرية نفسها ، برغم أننى رئيس الهيئة التشريعية فيها . وليس يجمل بى أن أحكم على موقف الدول العربية الأخرى استناداً إلى معلومات مبتورة أو مشوهة تنشرها الصحف أو أتلقاها تلقاً من هنا ومن هناك من الرجال الرسميين ومن الرجال غير الرسميين .

وعدت إلى مصر بعد أسبوع من انتهاء أعمال اللجنة التنفيذية وبعد أن تألفت وزارة إبراهيم (باشا) عبد الهادى . وتشرفت بمقابلة جلالة الملك وأفضيت فى هذه المقابلة بموجز من أعمال اللجنة التنفيذية وبتفصيل ما دار بينى وبين هذين الإسرائيليين . ومادار قبل ذلك بينى وبين مسيو ساسون حين كنت بجنيف . فابتسم جلالته بعد أن أتممت حديثى وقال : لقد بلغ من أمر هؤلاء القوم أن خاطبونى مباشرة بخطاب بعثوا به ، وكان أمامهم طريق الحكومة أو طريق الديوان .

فى هذه الأثناء كانت المحادثات دائرة فى قبرص يتوسط فيها وسيط الأمم المتحدة بين مصر واليهود ابتغاء الوصول إلى هدنة دائمة بين الفريقين .